وفاء موفق الدلاتي

المخضرمون

قصة اجتماعية معاصرة

الدار الإسلامية للإعلان

المُخَضْرَمون

قصة اجتماعية معاصرة

وفاء موفق الدالاتي

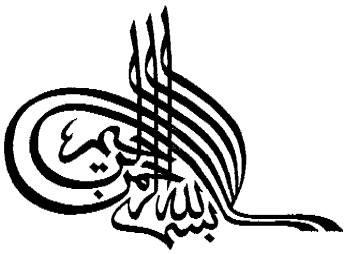

الإهداء

إلى أول من سمعت منها العربية الفصحى

والدتي ... السيدة فائزة

مع التقدير

الطبعة الأولى

رمضان ١٤٢٣/ تشرين الثاني- نوفمبر ٢٠٠٢

جميع الحقوق محفوظة للدار الإسلامية للإعلام

بون – ألمانيا

I.I.D. P.O.Box 100810
52008 Aachen /Germany

هذه القصة

المخضرمون في أدبنا العربي هم الأدباء أو الشعراء الذين عاشوا بين عصرين متتابعين كالجاهلي والإسلامي أو الأموي والعباسي أو غيرهما. قصة المخضرمون هذه تتناول جوانب من حياة أسر مسلمة تعيش في الغرب أولئك الذين يعيشون بين ثقافتين وكأنهم المخضرمون الجدد.

* * *

المؤلفة

الأديبة وفاء موفق الدلاتي خريجة كلية الآداب قسم اللغة العربية في جامعة دمشق. وقد كتبت هذه القصة من وحي تجربتها في بلاد الغرب لأكثر من عشرين سنة. وهي مازالت تقيم في إيرلندا، وتدرس اللغة العربية لغير الناطقين بها. ومن مؤلفاتها المنشورة:

* الميزان
* العجوز الحجري
* هلال في ثلوج البلقان

ISBN: 3-9805625-1-4

المحتويات

الفصل الأول : **التعارف**

الفصل الثاني : **الأيام الأولى**

الفصل الثالث: **في شارع "ايدجوير"**

الفصل الرابع : **تساؤلات**

الفصل الخامس: **فنجان قهوة**

الفصل السادس: **سامر**

الفصل السابع : **من المسؤول؟**

الفصل الثامن : **يريد ويريدون**

الفصل التاسع : **الزبونة الدائمة**

الفصل العاشر : **لا دراسة بعد اليوم**

الفصل الحادي عشر : **لنعمل**

الفصل الثاني عشر : **عقد الياسمين**

الفصل الثالث عشر : **حان السفر**

الفصل الرابع عشر : **شافع الورّاق**

الفصل الخامس عشر : **الوصول**

الفصل السادس عشر : **عبر الهاتف**

الفصل السابع عشر : **ولو في الصين**

الفصل الثامن عشر : **إعجاز الحق**

الفصل التاسع عشر : **ماذا يفعل ؟**

الفصل العشرون : **مرحلة جديدة**

الفصل الواحد والعشرون: **اللقاء**

الفصل الثاني والعشرون: **إعلان في الجريدة**

الفصل الثالث والعشرون : **النجاح**

الفصل الرابع والعشرون : **وجهة نظر**

الفصل الخامس والعشرون : **نفيد**

الفصل السادس والعشرون :**الخبر السار**

الفصل السابع والعشرون: **ما الذي يحصل؟**

الفصل الثامن والعشرون : **الرسالة**

الفصل التاسع والعشرون: **في شوارع لندن**

الفصل الثلاثون : **غير متوقع**

الفصل الواحد والثلاثون:**حتى مطلع الفجر**

الفصل الثاني والثلاثون : **العيد**

الفصل الثالث والثلاثون : **التخرج**

الفصل الرابع والثلاثون : **الوئام**

الفصل الخامس والثلاثون : **يوم جديد**

مقدمة

المخضـــرمون في أدبنا العربي هم الأدباء أو الشعراء الذين عاشوا بين عصرين متتابعين كالجاهلية والإسلام أو الأموي والعباسي أو غيرهما.

قصـــة "المخضرمون" هذه تتناول جوانب من حياة أسر مسلمة تعـــيش في الغـــرب، أولئك الذين يعيشون بين ثقافتين، وكأنهم المخضرمون الجدد.

الفصل الأول:

التعارف

عـــزمي الاســـكندري: هل وجدتما صعوبة في البحث عن الطريق الموصل إلى ساحة "البيكاديللي؟"

سامر المصري: لقد أحضرنا معنا خريطة مدينة لندن، ووجدناها مفيدة جدا. وفي الواقع لا نستطيع السير في شوارع لندن بدونها.

عزمي الاسكندري: فكرة ممتازة.

أروى الاســـكندري: لا يمكـــن للقادم الجديد أن يستغني عن خريطة المدينة، إنها وسيلة جيدة للتعرف على البلد الجديد والتحرك فيه.

قـــال عزمي الاسكندري وهو يلوح بيده وينظر إلى يمينه: هذا "إعجاز الحق الخوجة" ابن جارنا الهندي يحينا من بعيد، إنه طالب منكب على دراسته دوما.

أروى الاسكندري: مثله مثل بقية اخوته.

ســـامر المصري: لقد تعرفت على أبيهم منذ عدة أسابيع بالمصادفة، لقد أتحفني بأحاديث كثيرة منذ أول لقاء به.

عزمي الاسكندري: لا نريد التأخر عن "نوظيمي صُهيم"، لابد أن يكون في انتظارنا الآن ليعرّفنا على الطالب الجديد الذي قدم إلى لندن منذ أسبوع.

سامر المصري: هيا بنا.

أروى: تعـــالي معي يا سناء لأحضر ابني وابنتي من المدرسة، وبعدها أعرفك على جارتي الهندية "نوزت الخوجة".

سناء المصري: هل المدرسة بعيدة من هنا؟

أروى الاســـكندري: لأننا في ساحة "البكاديللي" فسنحتاج إلى وقت أكثر كي نصل إليها، ولكني سأريك بعضا من معالم لندن أثناء المسير.

سناء المصري: السفر تجربة جديدة يراد لها اطلاع وخبرة.

أروى الاسكندري: وها أنت تخطين الخطوة الأولى لذلك.

الفصل الثاني:

الأيام الأولى

سيحاول ما بوسعه إنهاء دراسته ضمن الوقت المحدد، ثم يعود وزوجته إلى بيروت مدينة الشـــمس والبحر والهواء العليل، وقبل كل ذلك مدينة تقيم فيها أسرته وأصدقاءه وذكرياته الجميلة مع جده العزيز.

بـــدأ يجـــدّ بدراسته قدر استطاعته، وبدأ يقتني الكتب والمراجع . ارتاد الجامعة وواصل الاطلاع ليلا ونهارا ليتغلب على كل عقبة تحول بينه وبين دروسه.

القاموس إلى جانب كتبه، والمراجع لا تفارق طاولة الدراسة أبدا، وهمته العالية تصحبه في أي وقت كان. وصورة جديه تملأ خياله أينما حل،ونصائحهما قد سكنت نفسه دائما وأبدا، وســـاعة جده الذي أهداها له حين سفره ترافقه في جميع الأوقات، وأما كلمات والديه فقد جعـــلها منهاجا له في دراسته. إنهما في انتظاره وآمالهما متعلقة به، وهو الأثير عند جديه لأنه الحفيد الأول.

وأما سناء زوجته الطيبة المملوءة بالنشاط والعزيمة، فهي تشجعه لكي ينهل من معين العلم، وتستشرف ملامح الحياة الجديدة معه، وتحاول أن تمده بمعين لا ينضب من الدأب و المثابرة، وتحـــاول التخفيف من حدة الغربة بإضفاء جو من الراحة والاستقرار في المنزل. وإلى جانب ذلك كله تتعرف على اللغة الإنكليزية لأنها لم تكن اللغة التي درستها حين كانت في بيروت. لقد تعلمت الفرنسية من أبويها اللذان كانا يتكلمانها بطلاقة، ومن مدرسيها في المدرسة.

إنها الابنة الأولى لأسرتها، في طبيعتها صفاء وفي حديثها جدية، وفي تفكيرها بحبوحة من الهـــدوء. لقد رباها والداها لتكون أمّا وزوجة مثقفة. وبما أن سفرها قد ترك فراغا كبيرا في محـــيط الأســـرة، وحنينا في أعماق نفسها، فقد حاول الطرفان تلافي ذلك الأمر بفيض من الرسائل التي لا تنتهي.

كانـــت سناء تبدأ بكتابة الرسالة صبحا تخبرهم فيها عن أحوالهم في هذا البلد الجديد، ثم تنهـــيها مســـاء لتسجل لوالديها كل ما تقوم به أثناء النهار. وحين يعود زوجها يضعها في

صـــندوق البريد مباشرة، ثم يهرع إلى المترل ليقرأ ما يصله من رسائل، ويستمتع بما تحمله من أخبار، وخاصة رسائل جده المملوءة بالنصائح. وفي معظم الأحيان يلخص محتواها في سطور ويكتبها في مذكراته اليومية.

طلبـــت منه سناء مرة أن يقرأ لها ما استخلصه من كلمات جده منذ أن قدم إلى بريطانيا إلى الآن .

فقال لها: عندما يخرج الإنسان من عالم إلى عالم، ومن ثقافة إلى ثقافة، قد يجد نفسه غير مزود بالمعرفة الكافية، ولا بالمهارات المتعددة التي تعينه على الولوج في المجتمع الجديد الواسع لكـــي يثبـــت جدارته. وعلى الرغم من أن المسافر لأجل الدراسة يكون عادة من المطلعين والقارئين، إلا أن عليه أن يتعلم أشياء كثيرة، وأن يتعرف على أمور كثيرة لكي يخطو الخطوة الأولى بثقة وثبات.

وتمضي الأيام الأولى في لندن، دراسة وقراءة وجدا ومثابرة، والهدف يزداد اشراقا، ويزداد الزوجان إليه سعيا واقترابا.

الفصل الثالث:

في شارع "ايدجوير"

وقفت حائرة في شارع "ايدجوير". إنها حديثة عهد بهذه المنطقة التي تقع في لندن، كانت بانتظار صديقتها الجديدة أروى. لقد انتقلت مع زوجها إلى المنزل الجديد منذ عدة أيام بعد أن قضيا أسبوعا في فندق صغير.

استطاع قتادة الحصول على هذا المنزل بصعوبة كبيرة فلندن مدينة واسعة تعج بالحياة و النشاط. ومدينة تمثل هذه المواصفات من الصعب جدا الحصول فيها على شقة قريبة من مركز المدينة.

إن وجود محلات عربية في شارع "ايدجوير"، وكون بعض قاطنيه من العرب يخفف على القادم الجديد من حدة الغربة.

قررت سناء الخوض في تجربة تعلم الإنكليزية بالرغم من أنها حديثة عهد بتحمل أعباء المنزل كاملة، كما أنها حديثة عهد بتحمل أعباء الزوجية.

في هذا الصباح تواعدت مع صديقتها أروى للذهاب إلى "البريتش كانسل" لتلقّي درسا في الإنكليزية.

مضت بضعة لحظات وهي تجيل النظر في هذا الشارع الجديد إلى أن أتت أروى ومعها طفلتها الصغيرة، وحيتها بحرارة وابتسامة مشرقة.

قالت سناء: هل يسمح للأطفال بدخول الدرس؟

أجابت أروى: نعم، هناك سيدة تقوم برعاية الأطفال في مكان خاص بهم. ثم انطلق الجميع إلى محطة قطار الأنفاق، واستقلوه إلى محطة "ترافلجار سيركل"، وهناك غادروا المحطة، وصعدوا الدرج المؤدي إلى الشارع الرئيسي، ومشوا في الطريق إلى أن وصلوا إلى بناء "البريتش كانسل". كان في استقبالهم المدرّسة "لورا"، وهي سيدة لطيفة تسير بسرعة وبخطوات متتابعة، وتتكلم بهدوء ونبرة واضحة، وبالرغم من أنها متقدمة في السن إلا أنها ترعى الأطفال بدراية، و تحب الجلوس معهم أيضا. لذلك تقدمت من ابنة أروى "ميادة"

وحيـــتها، ثم أخذتها إلى المكان المخصص للأطفال، ثم دعت "لورا" الصديقتين إلى الجلوس عـــلى الكراســـي المصفوفة حول المائدة الخشبية الكبيرة، ورحبت بهما، وقدمت لهما القهوة الساخنة الممزوجة بالحليب. كان الطقس باردا جدا، وبقايا من الثلج تغطي بعض الشوارع، لذلـــك كـــان الجميع يشعرون بالبرد وخاصة سناء القادمة حديثا إلى لندن، لذا كان فنجان القهـــوة يبعث الدفء و السرور معا. المدرسة "لورا" عرفتهما بالمدرسة "فيرا" والتي تبسمت لهمـــا بدورها و عرفتهما باسمها. وبالرغم من عدم معرفة سناء اللغة الإنكليزية لكنها شعرت بالترحيب اللطيف.

كانـــت "لورا" تحاول توضيح ما تقول بأسهل عبارات ممكنة لتتيح لسناء فرصة الكلام والمشاركة في الحديث.

ومـــع عقارب الساعة التي أشارت إلى العاشرة تماما قدمت بعض السيدات الأخريات بصحبة أطفالهن، وكنّ من بلاد مختلفة، عربيات، ماليزيات، باكستانيات، هنديات، صينيات. كلهن يجمعهن شيئان، أولهما قضية تعلم الإنكليزية، وثانيهما أنهن حديثات عهد في بريطانيا.

قدمـــت "لورا" القهوة لبقية الحاضرات، وبعدها بدأ حديث التعارف، حيث قدمت كل واحدة من الحاضرات نفسها بذكر اسمها وذكر السبب الذي أدى بها إلى المجيء إلى بريطانيا.

ثم بـــدأ درس الإنكليزية حيث قامت بتدريسه المدرسة "فيرا"، بينما جمعت "لورا" بقية الأطفال واصطحبتهم إلى غرفة مجاورة ووزعت عليهم الألعاب المسلية، وبقيت برفقتهم إلى أن انتهى درس اللغة حيث غادرت النساء المكان وهن مسرورات بذلك اللقاء .

التفتـــت أروى إلى سناء وهما في طريق العودة وقالت لها: لقد كان درسا مفيدا، أليس كذلك ؟

أجابت سناء: نعم.

تبسمت أروى وقالت: هل ستأتين كل يوم اثنين لحضوره ؟

فكرت سناء قليلا ثم قالت: سأحاول ما بوسعي لحضوره.

أروى: المكان بعيد قليلا.

سناء : نعم، لقد ظننته في المنطقة التي نسكن فيها.

أروى: إنه درس واحد في الأسبوع.

سناء: هذا صحيح.

تابعـــت الصديقتان السير وهما تتحدثان عن البلد الجديد. وما أن وصلتا إلى مدخل البناء الـــذي تســـكن فيه أروى حتى دعتها إلى صعود درج المترل معها لتريها كتابا لتعليم اللغة الإنكليزية، وأخبرتها بأنها قد درست فيه بعد وصولها إلى لندن، وأنها وجدت فيه فائدة كبيرة، لذلك عرضت على سناء استعارته والقراءة فيه.

قالت سناء: ما اسم الكتاب؟

أجابت أروى : اسم الكتاب "ماذا تقول؟".

سناء: هل هو من مجموعة سلسلة كانت تعرض في إذاعة لندن؟

أروى: نعم، هل كنت تستمعين لهذه السلسلة من المذياع؟

سناء: بعض الصديقات اللواتي كنّ يدرسن الإنكليزية ذكرنها لي مرة.

صعدت الصديقتان درج البناء الكبير، وما أن شارفتا على الوصول إلى باب الشقة حتى تداعى إلى مسامعهما صوت الجارة الهندية "نوزت".

استدارت أروى إلى الوراء فرأت "نوزت" وعلى وجهها ملامح الحزن، كما أن نظراتها توحي بوجود شيء ما يقلقها بشدة. تقدمت أروى منها وسألتها باستغراب عن حالها، وما سبب هذه النبرة الحزينة التي تشوب صوتها ؟

أجابت "نوزت" بأسى: زوجي يريد إخراج الأولاد من المدرسة ومن الجامعة.

أروى باستغراب: لماذا ؟

أمسكت "نوزت" بيد أروى وقالت لها: هيا ادخلي معي أنت و صديقتك لأروي لك ماذا حدث.

دخلـــت أروى و سناء مع "نوزت" إلى غرفة الجلوس المرتبة، وبدأت تتكلم و نظرات القلـــق تحوم حول عينيها السوداوين الواسعتين، و تعابير الضيق ترسم خطوطا من الهمّ فوق جبهتها العريضة، وبين حاجبيها الدقيقين.

إنـــه يريدهم أن يعملوا في المطعم معه، وهم جميعا بدورهم رافضون لهذه الفكرة، وكما تعـــلمين أن الأولاد قد قطعوا شوطا لا بأس به في التعليم، وليس لديهم مشكلة مع الدراسة سوى تعنت والدهم الذي لا مبرر له. إن جو المترل متوتر بسبب عدم استجابة الأولاد له.

صـــمتت "نوزت" قليلا، وتنهدت بعمق وقالت: إنني أواجه حيرة ما بعدها حيرة، ولا أعرف كيف أوفق بين مطالبه و بين رغباتهم. يريد أن يمنعهم من الذهاب إلى المدرسة بشتى الوســـائل، وهم غير آبهون لتهديده ووعيده. و أكثر من ذلك، يريد تزويج ابنته مجيدة لابن أخته جلال، ومجيدة ترفض الزواج قبل أن تنهي الجامعة.

وضعت "نوزت" يديها على رأسها وكأنها تشعر بصداع، وتابعت كلامها قائلة: لقد بدأ يمـــزق الكتـــب و الدفاتر، وصار لا يغفر لأولاده أي خطأ غير مقصود. إنه يتتبع سقطاتهم كـــيفما تحركوا، وكل ذلك لأنه كان يظن أنهم متفهمون لوضعه، وأنهم سيتركون الدراسة دون أن يطلب منهم ذلك، غير أنه وجدهم يترفعون عاما بعد عام، من صف إلى صف دون أن ينتـــبهوا إلى مراده. بصراحة لم أعد أحتمل تصرفاته التي لا تليق بأب مثله. و للأسف لم أكـــن أعـــرف أنه يملك مثل هذه الطباع إلى الآن. لقد بدأ إعجاز الحق و "زاكرة" يفكران بالـــلجوء إلى منزل أخي للدراسة، و لكن المشكلة أن أخي يسافر باستمرار فهو لن يستطيع رعايتهما دائما، و أنا أعرف أن "نفيد" لا يتراجع عن رأيه بسهولة، و ربما لا يتراجع أبدا.

لم تـــدر أروى ما تقوله "لنوزت"، فهذه أول مرة تواجه مشكلة كهذه منذ أن أتت إلى بريطانـــيا. لذلـــك حاولت الإنصات إليها، والاستماع إلى كل ما سردته دون أن تقاطعها، وســـاعدتها في أن تسترســـل في حديثها، وملامح التعاطف واضحة على قسمات وجهها المعبرة، و اكتفت بقولها: لا تقلقي لكل شئ حل.

سادت فترة صمت كادت أروى خلالها أن تطرح بعض الأسئلة على "نوزت"، و لكنها أحســـت بأنـــه ليس من الحكمة الآن الاسترسال في الاستفسار عن تفصيلات المشكلة، و آثرت أن تحتفظ بفضولها لنفسها ريثما تهدأ "نوزت"، و لكنها بدأت تفكر بكيفية مساعدتها.

لم تطل فترة الصمت طويلا لأن "نوزت" قالت لأروى: ما رأيك في الذي يحصل؟ وهل بالإمكان تجاوزه يا ترى؟ لم يعد باستطاعتي تحمل أكثر من ذلك.

رفعـــت أروى حاجبيها البنيين، وحملقت في وجه "نوزت" باستغراب، فهذه هي المرة الأولى الـــتي تستشـــار فيها بقضية مثل هذه، و لم تكن تعرف من قبل ما هي المشاكل، لقد عاشت في بيئة طيبة توفرت فيها أسباب التفاهم، و لم يستشر أحد في مشكلته قبل ذلك.

وبالرغم من أنها بعيدة كل البعد عن مثل هذه التجارب قبل الزواج إلا أنها كادت تسرع

في الإجابـــة عـــلى ســـؤال "نوزت" متأثرة بفيض من العواطف التي أملتها عليها أحاديث صديقتها، ولكنها تريثت قليلا، ثم قالت لها: حتما أنت بحاجة إلى من يساعدك.

قالت "نوزت" وهي متلهفة: كيف السبيل إلي ذلك؟

أجابـــت أروى: محفوظ إنسان متقدم في السن، ولد و ترعرع هنا، وله خبرة في الجالية المقيمة هنا، ولو عرضت عليه ما حدث معك لأفادك و زوجك، ولقدم النصح لأولاد أيضا.

فكـــرت "نوزت" قليلا ثم قالت: سوف أخبر إعجاز الحق و"زاكرة" بذلك، وأرجو أن يقبل نفيد ذلك.

سادت فترة صمت أخرى بعدها عرّفت أروى "نوزت" بصديقتها سناء، ثم ترجمت لها بعض ما قالته "نوزت".

قالـــت سناء: لقد فهمت من طريقة كلامها ومن تعابير وجهها أنها متضايقة، ولكن لم أعرف لماذا، أرجو أن أراها في الأيام القادمة وهي أفضل حالا.

ســـلمت الصديقتان على "نوزت" وانصرفتا، وأروى لا تزال تترجم لسناء ما دار بينها وبين "نوزت" من حديث.

أخذت الصديقتان تفكران بالحل، وقبل ذلك بالأسباب التي أدت إلى هذه المشكلة.

هـــل هي التربية غير المتفهمة ؟. هل نشأة الوالدين في بيئة غير البيئة التي تربى فيها الأولاد يسبب عدم التفاهم بين الجيلين؟ .كيف يمكن للمغترب أن يعالج مثل هذه الأمور؟

وخلصـــت الصديقتان إلى أن مثل هذه العقبات يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار لتلافي مثل هذه الحالات الطارئة وغير السعيدة للأسر المهاجرة.

الفصل الرابع :

تساؤلات

بـــالأمس في بيت كبير، شرفاته الواسعة محفوفة بأصص الياسمين والورد الجوري والزنابق ذات الـــرائحة العطـــرة، وأنواع أخرى كثيرة من النباتات المزهرة، واليوم في شقة صغيرة في شارع رئيسي مكتظ بالحافلات والمارة.

حـــياة جديدة في بلد جديد ولغة لا تعرف عنها إلا القليل. و لم يمهلها هذا الجديد سوى شـــهور معدودة من تاريخ زواجها حتى مرت بمشاعر جديدة ألا وهي مشاعر الأمومة. لقد حملت واعترتها أحاسيس جديدة. كانت تحب الجديد، وكل شيء جديد في حياة الإنسان يدخـــل على قلبه البهجة والسرور. ولكن إذا تراكم هذا الجديد وأتى دفعة واحدة لربما يجعل الحياة أشبه بالأحجية عند البعض.

ولما قابلها هذا الكم الجديد بهذه الطريقة الجديدة حاولت أن تقابله بالحكمة. كانت سناء تتأمله وتشعر بأنه باعث لها على التفكير مرة ومحير لها أخرى. لقد بدت لها الحياة طريقا مملوءا بـــالأبواب المتـــتابعة، ما أن تفتح بابا حتى يتراءى لها باب آخر بحاجة إلى فتح، وكلما انفتح أمامها باب تفتق في ذهنها سؤال آخر، بل تساؤلات كثيرة لا نهاية لها.

صـــديقتها أروى بالـــرغم من أنها مثقفة جامعية إلا أن ميولها الفنية من حياكة وتطريز وخياطة وأعمال يدوية أخرى، وما تقوم به من إبداع بها، استحوذت عليها وقتها و تفكيرها، كمـــا أن نجاحهـــا بـــتلك المهارات خولها للقيام بدورة تـــُعلّم فيها الراغبات من القادمات الجديدات إلى لندن هذه الفنون المفيدة لهن.

كانـــت أروى تطالع ولكن في فترات متباعدة، وكل ذلك لأنها وجدت محيطا خصبا لاختصاصها الذي تحبه. لقد ملأ عليها وقتها وأعطاها دفعا واستمرارا ومتعة ما بعدها متعة.

بالـــرغم من الصداقة الحميمة بين أروى وسناء، إلا أن ما ربط بينهما في البداية هو محبة القهوة التركية، وكونهما مغتربتين وليست الميول والهوايات.

بعـــد أن قـــرأت ســـناء الكتـــب التي أحضرتها معها من لبنان للبحث عن إجابة على التســـاؤلات التي تواجهها من حين لآخر، وجدت أن هذه الكتب لا تجيب إلا على جزء

زهـــيد مما يدور في خلدها. وحين استعارت بعض الكتب التي كانت بحوزة أروى، وجدتها بعد القراءة إما مغرقة في القدم و صعبة القراءة، وإما مكرورة لا جديد فيها.

طلبت من أروى أن تشاركها القراءة، ولكن صديقتها اعتذرت بسبب مشاغلها.

فكـــرت سناء بالقراءة باللغة الفرنسية علها تكتشف آفاقا جديدة من المعرفة أولا، وثانيا حـــتى لا تتفلـــت منها هذه اللغة التي أمضت أوقاتا طويلة في دراستها وإتقانها. لقد قالت لها مدرستها: إذا لم يمارس الإنسان اللغة التي تعلمها فإنه ينساها دون أن يشعر، فأنا أعرف الكثير ممـــن درس لغات عديدة ثم نسيها لعدم استعمالها في حياته اليومية. ولكن ظروف الحمل التي بدأت تمر بها، وعدم وجود من يشاركها الاهتمام نفسه قاعسها عن المضي إلى ما تبحث عنه

في هـــذه الظروف الجديدة، طلبت منها أروى مرة أن تترجم لها بعض محتويات المجلات الفرنسية التي تعنى بالخياطة والتطريز. بالرغم من أن ذلك بعيد كل البعد عما تصبو إليه، إلا أنها أحبت أن تبني صلة متينة مع أروى وبقية النساء المهتمات بهذه الفنون اليدوية. لذلك صارت تترجم كل ما يطلب منها من وقت إلى آخر.

تمنـــت لو أن بمقدورها متابعة برامج النقاش في المذياع بالإنكليزية، ولكن ذلك يحتاج إلى إتقان الإنكليزية، وهذا لا يحدث بين يوم وليلة، فإتقان اللغة يحتاج الدراسة والمتابعة مستمرة.

في هذه الفترة الحديثة في حياتها لازمها الشعور بالحنين إلى الوطن، وجذبها الماضي أحيانا إلى الأيـــام البيروتية الدافئة، وشدها الحنين إلى أهلها. لذلك كانت تسافر من حين إلى آخر على أجنحة ذكريات شتاء بيروت الجميل، حين كان الجميع يلتفون حول المدفأة الخضراء كل مساء ليتناقشوا فيما استجد من أفكار، وهم يشوون الكستناء ويشربون شاي الأعشاب المعطر أو كؤوس الحليب الساخن الممزوج بالكاكاو. كانت جلسات عابرة و لكنها منتجة ومفتّحة للأذهان، ومشجعة على البحث والعمل المفيد المثمر.

وحـــين تعـــود إلى الواقـــع يواجههـــا ثانية بإشارات استفهام كثيرة. هذه الإشارات الاستفهامية، تبدو وكأنها أسس لطريق يحتاج إلى معالم ليلجه المسافرون والمغتربون المنتظرون إجابات موضوعية وعلمية لأوضاع مروا بها و لم يعرفوا كيف يعالجوها، أو ربما عالجها كل واحد منهم بطريقته واجتهاده الخاص الذي يفتقر إلى نظرة شاملة وموضوعية.

الفصل الخامس:

فنجان القهوة

دخـــل ســـامر وسناء صومعة الزوجية بسعادة وسرور. ودخلت سناء بعد فترة وجيزة محراب الأمومة بكل شئ فيها، بعقلها وعواطفها وجسمها الذي بدأت تظهر عليه علامات التغير يوما بعد يوم.

أهكـــذا تـــبدأ رحلة الأمومة دفعة واحدة تجتاح كيانها ووجودها دفعة واحدة ؟! أهكذا تجعلها تعزف عما أحبت يوما من طعام، وتحب ما كانت تتجنب منه، و أحيانا تتوق لطعم غريـــب؟! مـــا أكـــثر ما احتفلت بفنجان القهوة التركية الممزوجة بالهيل، وما أشد تعلقها الصباحي به، فلا يبدأ النهار إلا به ولا ينتهي إلا به. وأما زوجها فهو أشد تعلقا بالقهوة منها لأنـــه يشربها أينما كان، وفي أي وقت كان، فنجان واحد منها لا يشعره بالنشاط فقط بل يحمله إلى ذكريات عزيزة على نفسه، إنها ذكريات اجتماع الأسرة حولها كل صباح. لذلك مـــا أكثر ما اهتمت سناء بركوات القهوة المتنوعة وفناجينها المذهبة ، وها هي اليوم وبعد أن دخلت محراب الأمومة في مراحلها الأولى تضيق ذرعا حتى بذكر اسمها وقبل أن تراها.

و أمـــا الزوج الدؤوب على دراسته فما نصيبه من محراب الأمومة هذا؟ لقد استحالت زوجته النشيطة إلى امرأة هادئة يعتريها التعب كل صباح، وبعد كل وجبة طعام. قبل الحمل كانا يشربان قهوة الصباح، و يستمتعان بطعمها المعبق معا، وأما الآن فعليه أن يقوم بإعدادها بنفســـه، وشـــربها لوحده وحتى غسل فناجينها وكل ما يتعلق بها. في كل مرة ينظر إلى ما كانت تعانيه سناء تساوره تساؤلات و تساؤلات لا نهاية لها.

مرة طرح عليها واحدا من هذه الأسئلة التي تتوارد في ذهنه قائلا: هل هذه العوارض التي تمرين بها تحصل لكل من تحمل في هذا العالم؟

أجابت سناء: ربما يكون هذا الشيء عاديا و مألوفا، وينتاب كل من تحمل في هذا العالم في هذه الأرض، ولكن هذه العوارض بالنسبة لي تعتريني لأول مرة في حياتي.

يشعر بالارتياح لأنه سيصبح أبا، وبالحيرة لأن روتينه الصباحي قد تغير. لقد شغلها هذا

الطفل عنه حتى قبل أن يأتي إلى هذه الدنيا.

أهكـــذا تبدأ رحلة تكوين الأسرة الحقيقية؟ زوجة استحوذت مشاعر الحمل عليها كليا ومـــن أول طـــريق الزواج، و زوج يقف حول هذا المحراب متسائلا: ترى متى ستعبر هذه المرحلة الصعبة؟ وهل سترافقها طيلة فترة الحمل أم ستنتهي بعد بضعة شهور فقط؟

تنتابه بعض مشاعر القلق أحيانا، وأحيانا بعض مشاعر السرور.

يطـــل من حين إلى آخر على هذا المحراب شفوقا مرة ومملولا مرة، مهموما مرة وسعيدا مـــرة، متضـــايقا مرة ومتعاطفا مرة أخرى، ثم يخلص إلى أن كل هذه المشاعر والأحاسيس والتغييرات هي الإرهاصات الأولى التي ستجعل من الزوجة أما ومن الزوج أبا.

ســـألها مـــرة: أين فنجان القهوة والوجه البشوش اللذان كانا ينتظراني كل صباح وقبل مغادرة المنزل؟

أجابت سناء: فترة و تمضي، يعود بعدها كل شيء إلى ما كان عليه. إن الغربة يا عزيزي تتطلـــب من الزوجين أن يكونا أكثر من زوجين لبعضهما. ربما يتطلب منهما أن يلعبا دور الأبوين، وفي بعض الحالات دور الأخوة والأخوات، وأحيانا دور الأقارب والأصدقاء. وفي حـــال إدراك الـــزوجين المغتربين لهذه الأدوار المطلوبة من كليهما لابد أن يكتب لزواجهما الراحة والوئام.

الفصل السادس:

سامر

أصبح سامر من زبائن "نفيد" الدائمين، وكل مرة يتوقف عنده ليشتري بعض الوجبات يـــتحادثان سوية عن أشياء كثيرة، ومن بينها رغبة نفيد في ضم أولاده إلى العمل معه بشكل دائم، لأنه يريد الخير لهم، ويريد مساعدتهم. وقد عبر له مرارا عن مدى ندمه لعدم إخراجهم من المدرسة في سن مبكرة. وصار ينصحه بأن يتعلم من التجربة التي يمر بها حتى لا تتكرر معه مســـتقبلا. ومع مرور الأيام ونتيجة لتكرار نفيد لهذا الحديث على مسامع صديقه أثمرت في نفـــس سامر فيما بعد فكرة تدريس الأطفال في المترل. لذلك وقبل أن يولد الطفل الأول بدأ يتناقش مع سناء بهذا الأمر، كما أنه راسل جديه وأبويه مرارا ليستشيرهم و ليخبرهم بما هو عازم عليه.

وبالـــرغم من رفض سناء وأبويه وجديه لهذه الفكرة في بادئ الأمر إلا أنه طرح عليهم قصـــص نفيد الكثيرة، وأخبرهم بأنه يريد أن يقوم بتجربة جديدة، تقوم على أساس تدريس الأطفـــال جمـــيع المناهج المقررة في المترل، وحين يصلون إلى مرحلة الشهادات التي تخولهم دخـــول الجامعة سيتيح لهم الفرصة لتقديم الامتحانات العامة، ومن ثم يدخلون الجامعة بعد مرحلة نضوج شخصيتهم وأفكارهم، وبذلك يضمن بقاءهم في حوزة طاعته، ولا يمر بما مر به صديقه نفيد، و أبدى كل استعداد للقيام بتلك المهمة.

بعـــد محادثات طويلة قال له جده: أنت متحمس الآن لهذه الفكرة، ولديك متسع من الوقـــت لتعـــيد النظر بذلك. افعل ما تراه مناسبا أنت وسناء، ولا تنسى أن تخبرني بكل ما يستجد معك بهذا الموضوع.

الفصل السابع:

من المسؤول ؟

كـــان مشغولا إلى حد جعله ينسى الزمن لمدة ليست بالقصيرة. لقد غض الطرف عن أولاده وهـــو في معمعة الحياة، وأما السعي فيها فقد جعله شبه نائم على مرتفع من مرتفعات الهمالايا بعيدا عن أطفاله الذين لم يغادروا المنزل دون زوجته ودونه ولا لمرة واحدة. تيار الحياة جرفه إلى غير رجعة وجعله يفكر بنقطة البداية التي بعدت عنه زهاء عقدين من الزمن، والتي يود لو أن باستطاعته أن يعود إليها، ويتوقف حيالها ولو لساعات ليتلافى التقصير الذي بدر منه تجاه أسرته. كل ما يراه الآن هو تراكم الأمور التي كان غافلا عنها طيلة السنوات الماضية.

يـــريد مـــنهم أن يكملـــوا ما بدأه هو، وكيف يكون ذلك بعد أن مضت كل هذه السنوات. لقد سمح لهم بدخول المدرسة بإرادته، ويريد أن يخرجهم منها بإرادته، لماذا؟

لأنهـــم أصبحوا يافعين وقادرين على مساعدته في عمله؛ فالعمل في المطعم بداية لأشياء كـــثيرة، أولهـــا مؤازرته، و ثانيهما تحسين العمل وتوسيعه وبهذه الطريقة سيفتح لهم طريق المستقبل الذي تعب كثيرا في خطه لهم منذ زمن بعيد.

ولكـــن ما حدث لم يكن بحسبانه، لقد انزلق من بين كفيه زمام الأمور، لقد شعر بأنه تحول من أب إلى مراقب لنتائج غيابه الشعوري عنهم طيلة الأيام الماضية.

من الذي فعل ذلك؟ قالها وهو يبحر في شروده. هل انشغاله المتواصل بالعمل في المطعم هو الذي أبعده عن ساحة نمو أطفاله كل هذه السنين؟

فجأة انتفض كما ينتفض جناحا الطائر المبلل بماء المطر، وأدار بوجهه نحو النافذة ثم قال: لمـــاذا أســـأل من فعل ذلك الآن؟ في عرفي شيء واحد و عليهم أن ينفذوه حالا، ألا و هو مغادرة المدارس فورا والانخراط في العمل و تنمية خبراتهم في المطعم.

"لا". بدرت من فم أصغرهم، "لن نحترف الطهي"، قالتها و في صوتها نبرة احتجاج.

أجاب و هو يزمجر: أتستصغرين ما أقوم به لأجلكم جميعا ؟!

أجـــاب أكبرهم: لا يا أبت لا نقصد ذلك على الإطلاق، سنساعدك من حين لآخر،

ولكن أن نكون طهاة طوال حياتنا أمر بعيد كل البعد عن تطلعاتنا و طموحاتنا.

اتســـعت حدقـــتا الأب، وارتفع حاجباه الكثيفان، واتسعت فتحتا أنفه وهو ينظر لابنه وقال: أهذا ما تعلمتموه ؟ أهذا ما تخبركم به الكتب التي تقضون جل أوقاتكم بتصفحها ليلا ونهارا؟ حتما تنقصكم أشياء كثيرة عليكم الاطلاع عليها و مهمتي أن أعرفكم بها.

قالـــت مجيدة بصوت هادئ: لا نقصد عصيانك يا أبي، كل الذي نريده منك أن تمهلنا بضع سنين وسترى ما لم تكن تتوقعه أبدا، إننا مجدون في الدراسة.

أحس نفيد بأن كلمات أولاده ترفع الستار عن حواجز ما تراءت أمامه من قبل، وشعر بـــأن كـــل كلمة يتلفظ بها أحدهم لبنة جديدة توضع فوق هذه الحواجز لتزيد من علوها، وتـــزيدهم غيابا عن ناظريه. فقال بنبرة يشوبها الإصرار: لا أريدكم أن تبتعدوا عني أكثر من ذلك

قالـــت صـــالحة بلهجة عتاب: لا نقصد الابتعاد عنك يا أبي، ولكن ما دمنا قد تقدمنا بدراستنا فلماذا لا ندخل الجامعة مثل إعجاز الحق ومجيدة؟

أحس نفيد بغصة في حلقه، فقال: ومن قال أن أخويكم سينهون الجامعة؟

فارتفع صوت إعجاز الحق بحماس: لماذا يا أبي؟

فتماسك نفيد بالرغم من غيظه الشديد من مقولة ابنه، وقال لزوجته وهو يحاول الضغط على مشاعره الثائرة: إنهم يكلمونني بلغة الند للند كيف يتجرءون على ذلك؟

تريثت نوزت قليلا، ثم همست بعبارة لم يفهمها نفيد. فعلا صوته وقال لها: ماذا تقولين؟

أجابـــت نوزت: إنهم لا يطلبون المستحيل، كل ما يريدونه العمل بما لم يخطر على بال كلينا.

نفيد: ما الحل برأيك؟

أجابت نوزت وهي تهدأ من روع نفيد: علينا أن نفكر باختيار الفرع المناسب لهم .

فقال نفيد بعصبية: ماذا تقولين؟ أنسيت أننا تعبنا كثيرا في تأسيس هذا العمل حتى نجنبهم الصعوبات التي مررنا بها حين قدمنا إلى لندن.

صمت نفيد برهة وقال: أنا الذي سيقرر ما هو الصالح لهم.

فـــنظر إعجاز الحق إلى وجه أبيه المكفهر، وتحدث معه بطريقة لا تثيره قدر استطاعته، ثم

قال له: قرر لنا يا أبت ما يتفق مع ما وصلنا إليه في الدراسة، لا مع ما وصلت إليه في المطعم.

عـــندها قطـــب نفيد حاجبيه مرة أخرى، وشبك بين أصابعه، وقال: لن أسمح لكم أن تتمادوا أكثر من ذلك، هيا انصرفوا إلى غرفكم.

وما أن غادر الأولاد المكان حتى قال نفيد لزوجته: لم أكن نائما فقط كل تلك السنين، بل كنت أغط في شخير عميق.

الفصل الثامن:

يريد ويريدون

في يوم العطلة، يجلس نفيد على كرسيه الهزاز لينال قسطا من الراحة، وليشعر بالاسترخاء. يضع أمامه مذياعه ويحرك مؤشره من موجة إلى أخرى، وحتى لا يضايق أحدا بصوته، يضع السماعات بأذنيه ويصغي إلى برامجه. الكل يعرف أنه يفضل المذياع على التلفزيون وأنه يصطحبه معه أينما ذهب. ما أن يكلمه أحد من أفراد أسرته، حتى يرتفع طرفا فمه إلى الأعلى، وينسدل طرفا حاجبيه الكثيفين على زاوية عينيه البنيتين ليشكلا ابتسامة طريفة فيها حنو وسعادة.

و لكن الأمر لم يعد كذلك منذ أن رفض أولاده مغادرة الجامعة و المدرسة. لقد أصبح عصبيا متضايقا لا يعرف طعم السرور.

في يوم من أيام العطل كان جالسا على كرسيه الهزاز كعادته في غرفة الجلوس يفكر بمخططه الجديد. ولكنه أحس بأن هذا الكرسي لم يعد يسعده كما كان سابقا لذلك تركه وجلس على أريكة وثيرة ونادى أولاده بأسمائهم واحدا تلو الآخر، وطلب منهم الجلوس على كراسيهم بجانبه.

تركت نوزت صنارة الكروشة وخيطانها، وأصغت السمع لما سيقوله نفيد، لقد كانت تعلم أنه لا يزال مترعجا من قرار أولاده، لذلك أرادت المشاركة في الحديث للتخفيف من حدة التوتر قدر الإمكان.

جلس الجميع في الغرفة، وكل واحد منهم قد ملئت جعبته بكلام كثير وصريح. صمت نفيد برهة وهو يفتل شاربيه الممتدين فوق فمه المزموم من الضيق، ثم قال: لماذا لا تريدون السفر إلى الهند لقضاء العطلة هناك؟

قال مجيب: لماذا تريد منا الذهاب إلى الهند ودوام المدرسة لم ينته بعد؟

وحالما انتهى مجيب من كلامه، قال إعجاز الحق: نحن على وشك تقديم الامتحانات، وكلنا منهمكون في الدرس و التحضير وأنت تريد منا السفر!

التفتت مجيدة إلى أمها وقالت: لماذا لا نؤجل الموضوع إلى الصيف؟

قال نفيد بلهجة واضحة: جداكم طلبا منا الحضور الآن، بالإضافة إلى أنكم لا تتحملون صيف الهند الحار، والسفر في الشتاء أفضل لاعتدال الطقس هناك.

قالت صالحة بصوت متهدج: نحن نحب جدينا كثيرا، ولكن الوقت غير مناسب الآن.

حـــدق نفيد بوجه أولاده وقال: الآن لدينا ما هو أهم من الدراسة، نريد إرضاء جديكم وإسعادهما، كما أن عمتكم تريد مجيدة زوجة لابنها جلال، و قد وعدُتها بذلك منذ سنوات بعيدة، والآن جاء الوقت المناسب لتحقيق هذا الوعد.

فقالت نوزت وهي تضع سنانير الحياكة في كيسها الخاص: لقد بقي لزاكرة سنة واحدة وتتخرج من الجامعة، والأفضل أن لا نتخذ أي قرار حتى تنهي دراستها.

فقال نفيد باستغراب: ولكني وعدت أختي بالقدوم إلى الهند خلال الشهر القادم لإجراء مراسيم الخطبة. لقد تخرج ابنها من الجامعة في العام الماضي وهو يعمل الآن ومستعد لتحمل أعباء الزوجية.

لم تـــتحمل مجـــيدة مـــثل هذه الأنباء ، والقرارات السريعة فقالت لأبيها: ما تقوله أمي صحيح، أنا لا أرغب في الخطبة حاليا، ولدي ما أريد إنجازه هذا العام.

فأجـــاب نفيد بإحباط: لقد قيدت الدراسة حريتكم، وأبعدتكم عن والديكم وأقاربكم أيضا، ولا أعرف ماذا سيكون مردودها عليكم في المستقبل.

إعجاز الحق: ستأتي لنا بالخير يا أبي.

نفيد : ليس لديك الخبرة الكافية لتحكم عليها بهذه السرعة.

إعجاز الحق: وماذا تقول عن كل هؤلاء الطلبة الذين سافروا كل تلك المسافات البعيدة، وتركوا أوطانهم وأهليهم لأجل الدراسة هنا.

نفيد: هؤلاء المتعلمون سيعودون إلى وطنهم الأم لأن الناس هناك بحاجة إلى علمهم، أما أنت فستبقى هنا، وأنا بحاجة إلى عملك معي لأجل مستقبل أفضل لك وللأسرة جميعها.

الفصل التاسع:

الزبونة الدائمة

كانـــت نوزت في المطعم تجهز بعض الوجبات التي تقوم ببيعها عادة، حين ذهب نفيد لشراء بعض لوازم الطهي من السوق المجاورة.

كانت تشعر بالضيق الخانق بسبب تصرفات نفيد تجاه أولاده. أفكار وأحاديث كثيرة تمر بذاكرتها وهي تحاول استحضار حل يساعدها في إقناع نفيد بالعدول عن رأيه، واتخاذ موقف موضوعي تجاه الأولاد، ولكنها كانت متعبة ومنهكة إلى حد منعها من التفكير في طريقة أمثل لحل هذه القضية التي بدأت تتخذ أبعادا صعبة في الأسرة، لقد أصبح وجود نفيد والأولاد معا مدعاة للجدل والنقاش الذي لا ينتهي.

قالـــت في نفســـها: لو أنهم يكرهون الدراسة ويرفضون العمل معه لقلت أن معه الحق، ولكنهم مجدون ومتقدمون في دراستهم.

إنـــه لا يريدهم أن يمروا بالمصاعب التي اعترضت سبيله حين أسس عمله، و لكنهم غير راغبين في هذا النوع من العمل، كيف أقنعه بذلك يا ترى؟

أحست بنفسها كسائح تاه في بلد وهو لا يعرف شيئا عن لغة أهل ذلك البلد، كما أن أهل البلد لا يعرفون شيئا عن لغته.

تنهدت بعمق وقالت: يا إلهي كيف السبيل إلى راحة البال؟

وبيـــنما كانت مستغرقة تفكر فيما يجري في المنزل، قطع سلسلة أفكارها دخول زبونة المطعـــم الدائمـــة السيدة رندة، وحيتها كالعادة. ردت نوزت التحية، ولكن ليس بطبيعتها المعهودة، لقد كانت هادئة وشاحبة الوجه.

اقتربت منها رندة حين لاحظت ذلك وقالت لها: ما بك يانوزت؟

قالت نوزت: إنني متعبة قليلا.

قالت رندة بأسلوبها المرح: تبسمي لتذهب هذه المشاعر منك بعيدا.

أجابت نوزت: شكرا على اهتمامك بي، ولكن ما تقولينه صعب جدا. على كل حال أخبريني ماذا تريدين الآن؟

رندة: أريد وجبة من دجاج "التندوري" مع خبز "النان"(١).

قالت نوزت وهي تقلي "البكورة" (٢): حسنا، و لكن عليك الانتظار قليلا.

قالت رندة وهي تفتح سلة التسوق استعدادا لوضع ما ستشتريه: هل صحيح أن أولادك سيتركون الدراسة وسيلتحقون بأبيهم للعمل معه؟

نوزت: كيف عرفت؟

رندة: ابنتك صالحة أخبرت ابنتي رحاب منذ أيام.

نوزت: إنه قرار نفيد وليس قرار الأولاد.

رندة: وأنت ما رأيك بذلك؟

نوزت: ليس لدي مانع في أن يعمل الأولاد معنا في المطعم إذا أرادوا ذلك، و هذه رغبة نفيد. وليس لدي مانع في إكمال دراستهم لأنها رغبتهم. وأنا حيرى بسبب ذلك.

رندة: أهذا تبدين حزينة؟

نوزت: نعم.

رندة: ما رأيك بالذهاب إلى زاهرة؟

نوزت: ومن هي زاهرة؟

رندة باستغراب: لا تعرفي من هي زاهرة ؟!!

نوزت: لا، لا أعرف من هي زاهرة.

رنـــدة: إنها قارئة الفنجان المشهورة، يقصدها الكثير من الناس لاستشارتها لحل الأمور المستعصـــية عليهم. إنها تأتي إلى لندن مرة كل عام للاستجمام و السياحة منذ زمن طويل، وخلال إقامتها تستقبل الراغبين في عرض مشاكلهم عليها لتساعدهم، و لتقدم نصائحها لهم. وفي كل مرة تأتي فيها إلى لندن أذهب وأزورها مع بعض الصديقات.

نوزت: ولماذا تسميها قارئة الفنجان؟

---

(1) دجاج التندوري: دجاج يضاف إليه كمية وافرة من البهارات ومن ثم يشوى بالفرن

النان: خبز يعجن بالكزبرة الخضراء واللبن

(2) البكورة: عجين وبهارات متعددة يضاف إليها بعض الخضار وتقلى بالزيت

رندة: سأشرح لك ذلك. حين نزور زاهرة ستقدم لنا القهوة في فناجين منمنمة، و بعد أن تنتهي من شربها ستقلب لك الفنجان على صحنه، وستنتظره لمدة دقائق لكي يجف، وبعد ذلـــك ستحمله وستنظر إلى التعاريج التي جفت على جدرانه، وبعدها ستخبرك عن أشياء تخفف عنك بعض الذي تشعرين به الآن.

وإذا شعرت بالارتياح إليها ربما تزورينها مرة أخرى، وتبحثين معها عن أفضل طريقة لحل مشكلتك، وهي بدورها ستنصحك.

إن زاهرة امرأة تتقن فن الاستماع، وتعرف كيف تروح عن النفوس بكلمات لبقة، ولا تجـــرح أحاســـيس زبائنها، و تتجنب كل ما يسيء إليهم، وتعرف كيف تعاملهم بمهارة ولطـــف. إنها قادرة على اختراق الحواس الخمسة لمستمعيها إلى درجة تجعلهم يصغون إليها دون ملل، وفي نفس الوقت تستطيع التخفيف من حدة أعبائهم، ولو لساعة من الزمن.

بعد أن سمعت نوزت كلام رندة قالت بتلهف: ومتى أستطيع مقابلتها؟

رندة: لقد كلمتني بالهاتف الأسبوع الماضي، ولكني لم أذهب إلى زيارتها بسبب انشغالي، وأظن أن باستطاعتنا الاتصال بها، وتحديد موعد لزيارتها الآن.

نوزت: حسنا، الهاتف بالغرفة المجاورة.

وفي الـــيوم المحـــدد ذهبت الصديقتان إلى منزل زاهرة. كانت نوزت تتطلع لتلك الزيارة الموعودة، وما ستحمله لها من حلول تفرج عنها ذلك الكرب الشديد. ولكن بعد أن دخلت السيدتان منزل زاهرة، وبعد أن تجاذب الجميع أطراف الحديث، فوجئت الصديقتان بتوقف زاهـــرة عن قراءة الفنجان بشكل نهائي، واعتزالها لتلك المهنة التي جعلت منها يوما ما إنسانة معروفة بحصافتها وحسن رعايتها لقاصديها.

سألتها رندة: ما الذي جعلك تتوقفين عن مهنة لا يتقنها إلا القليل من الناس؟

أجابت زاهرة: لم أعد مقتنعة بأني سأحل مشاكل الناس عن طريق الفنجان، لقد تبين لي بعـــد كـــل هـــذه المدة الطويلة من الممارسة بأني نجحت في حل مشاكل بعض الناس بهذه الطـــريقة، ولكن ليس بشكل جذري، والدليل على ذلك عودة الكثير منهم إلي لطلب المزيد مـــن النصـــائح والحلول. كما أن الفنجان لا يعطيني معلومات على الإطلاق، إنني أستقي المعلومات التي أنصح بها من يطلبها مني من الحياة نفسها.

رندة: وماذا تفعلين الآن؟

زاهرة: أحاول أن أقرأ عن الإنسان من منظور المعارف الحديثة والطبيعية، لربما أستطيع في المستقبل عمل شيء ما في هذا المجال. ولكن بالتأكيد لن أعود لقراءة الفنجان بعد اليوم.

أصـــيبت نوزت بخيبة أمل بعد أن كانت تتوق لسماع ولو كلمة واحدة لتخفف عنها بعضا مما تعانيه. لذلك بعد أن غادرت الصديقتان منزل زاهرة حاولت رندة نصح نوزت بما لديهـــا من خبرة وبما تعرفه من حلول، لتساعدها على تخطي هذه المرحلة الحرجة، ونوزت تستمع إليها وكلها آذان صاغية.

وفي نهاية الحديث تمنت لها السعادة الدائمة، ثم ودعتها وانصرفت.

الفصل العاشر:

لا دراسة بعد اليوم

لن يترك لهم كتابا ولا دفترا بعد اليوم. سيتخلص من كل شيء له علاقة بالدراسة لكي ينسوها بشكل نهائي. لقد غادره "خلوق" ذلك العامل الذي يساعده في المطعم، وهو بحاجة إلى من يتولى القيام بمثل هذا الأمر الآن.

لن يستطيع نفيد عمل كل شيء بمفرده، إنه بحاجة لمن يساعده وليس من السهل جلب إنسان مثل "خلوق" الذي عمل معه لمدة عشرة أعوام بإخلاص ونزاهة حتى أصبح يعامله كأقرب المقربين إليه، ويطمئن لتسليمه إدارة أعماله كلها إن احتاج الأمر. والآن من أين له أن يأتي بعامل له خبرة ومعرفته "خلوق" ؟ لاشك أن البحث عن إنسان مثله صعب للغاية.

قطب نفيد حاجبيه برهة وبدأ يفكر بالأمر. بعد دقائق لمعت بذهنه خاطرة، عندها توقف عن التفكير وقال في نفسه: لماذا سيحضر عاملا يقوم بتلك المهام في الوقت الذي يستطيع أولاده إنجاز ذلك بيسر وسهولة؟

عليهم الالتحاق به حالا، وقبل أن يكلف نفسه عناء البحث عن عامل آخر.

أما مجيدة، فقد أقسم أن لا يكلمها حتى تقبل من ابن أخته زوجا لها. إنه عهد قطعه على نفسه منذ أمد طويل أمام أخته حين ولدت ابنته، ولن يتراجع عن كلمته أبدا، وبعد ذلك عليها وزوجها الانضمام إليه للعمل معه.

اقترح إعجاز الحق أن يساعد والده مساء، لكن نفيد رفض ذلك، وطلب منه أن يعمل معه طوال النهار.

طلبت مجيدة إرجاء موضوع الزواج إلى أن تنتهي من الدراسة، غير أن نفيد أصرّ على تنفيذ وعده. لذلك اضطر الأخوان الذهاب إلى بيت خالهما نصوح.

صار نفيد رجلا هائجا، بل أصبح يتصرف بفظاظة بعد أن كان لطيفا. إن الشعور بالإحباط كان يلازمه دائما لعدم مقدرته على إقناع أولاده بالعمل معه.

إنه لا يتقن سوى فن الطبخ الهندي بمهارة فائقة. ولقد اشتهر بحسن اختيار أنواع البهارات، وبمهارة المزج بين مختلف أنواع المقادير المكونة للطهي.

جميع زبائنه يثنون على مطعمه وعلى حسن استقباله، حتى أنهم يسألونه أحيانا في أن يختار لهم الوجبة التي سيتناولونها، فيشير عليهم ويخبرهم عن طريقة طبخه.

كل ذلك النجاح الذي حققه في مطعمه، وأولاده لا يزالون يريدون الدراسة.

حاولت نوزت أن تقنعه بأن الأولاد راغبون في مستقبل من نوع جديد. كان يجيبها بأن مســـتقبل المطعم يبدو زاهيا أمام عينيه، وأنه في حال استجابة أولاده لمقولته فإنهم سيتجنبون أعباء اجتازها هو بصعوبة لكي يسعدهم.

حاولـــت نوزت أن تقنعه بأنه من الغلط أن تتزوج مجيدة بالإكراه الآن مهما كان الأمر، فأجابهـــا: بأن ابن أخته قريبه، وهو يعرفه تمام المعرفة، وأن ارتباطه بابنته سيكون أفضل ضمان للمحافظة على تقاليد أسرته. كما أنه يفكر جديا بإقناعه حين قدومه بالعمل معه هو وابنته.

و في رأيـــه، الأولاد المؤدبون هم الذين ينظرون بعيون والديهم، وهم الذين يرضون بما يقولانه ويخططانه لهم لأنهما يدركان مالا يعرفونه هم.

إن الأولاد لا يزالون واقفين على أعتاب الحياة، وكونهم يدرسون لا يعني أنهم يستطيعون التميـــيز بين ما يفيدهم وما لا يفيدهم، إن الوالدين لهما من الخبرة في هذه الحياة أضعاف ما يدركونه أنفسهم.

و أما مجيدة وإعجاز الحق فلم يكن لديهما أدنى شك بأن والدهما لن يبقى على هذه الحال دائما، وهما في انتظار ذلك اليوم الذي يستطيع فيه تفهم الجميع.

حـــاول كلاهما العودة إلى المترل لكن نفيد أخبرهما بأنهما يستطيعان العودة فقط في حال قبولهما لشروطه.

ومرت الأيام، واضطر قريبهما نصوح إلى العودة إلى بومباي مع زوجته، فاضطرت مجيدة إلى الانتقال إلى مترل صديقاتها الماليزيات، واضطر إعجاز الحق للالتحاق بالسكن الجامعي مع أصدقائه. بقيت نوزت على صلة دائمة بهما، و في قرارة نفسها ترجو أن يغير نفيد رأيه لكي يعودا إلى المترل، وتعود الحياة كما كانت عليه في السابق.

الفصل الحادي عشر:

لنعمل

بالـــرغم من ابتعاد مجيدة عن المترل إلا أنها بقيت تزور جارتها أروى وصديقتها سناء مع أمها من حين لآخر. بعد ذلك طلبت مجيدة من أروى أن تعلمها بعض غرز الحياكة مع أمها نوزت فرحبت بهما أروى.

وبعد فترة رافقت مجيدة صديقتها الماليزية "نور الأذان" إلى درس الحياكة، وقد استطاعت الصديقتان إحراز تقدم لأن أروى كانت تشرح لهما كل شيء بطريقة دقيقة ومتدرجة.

كان هذا اللقاء الأسبوعي فرصة لنوزت كي ترى ابنتها وتطمئن عليها، وتتعاون معها في تصميم وتطريز بعض القطع التقليدية الهندية.

استطاعت أروى المجدة أن تشجع المغتربات اللواتي كن في مثل وضعها على المشاركة في بعـــض المعارض المبتدئة، وبالرغم من أن المعرض كان على مستوى الجالية إلا أن الجهود التي بذلـــت لإنجاحه كانت كبيرة، وقد لاقت بعض هذه المعارض المتواضعة استحسانا من قبل المغـــتربين. وبعد فترة من العمل المتواصل استطاعت هؤلاء المهاجرات تشكيل رابطة خاصة بالتراث الشرقي.

إن عمـــل أروى في هذه المهارات من قبل، وتدريسها هذه المادة لعدة سنوات قبل مجيئها إلى بريطانيا أعطاها جرأة للمضي في هذا العمل مع بقية النساء اللواتي كن يعانين من مشكلة الحنين إلى الوطن.

كانـــت الـــبداية فـــنا يدويا بحتا، وفيما بعد وبعد أن اطلعت المهاجرات على المجلات البريطانية، والترجمات الفرنسية التي كانت تقوم بها سناء، وبعد اقتناء بعض النشرات الدورية، واقتناء آلات الحياكة والتطريز، استطعن تطوير هذا الفن وجعله مزيجا من القديم والحديث.

كانـــت مســـاهمة النساء في مثل هذه المعارض مثمرة على الصعيد الاجتماعي، وعلى الصعيد الذاتي، فالعمل في مثل هذه الفنون يساعد المغتربات اللواتي ليس لديهن ميل للمطالعة، ويشـــغل أوقاتهن بأشياء مفيدة ومنتجة للأسرة وللمرأة نفسها، لأنه يشعرها بأنها تقوم بعمل

فعال وممتع في آن واحد.

وأمـــا مشاركة نوزت في هذه المعارض فكانت ترويحا لها عما تعانيه في المترل من تعنت نفـــيد، وفرصة مناسبة لتلتقي بابنتها. وبذلك حققت تلك النشاطات أشياء عديدة في حياة المغـــتربات، أهمهـــا الشعور بالإنجاز الذي دفعهن إلى المضي قدما في ذلك المشروع، وجعله مَعلما من معالم حياتهن في المهجر.

الفصل الثاني عشر:

عقد الياسمين

كـــان الوقت صيفاً حين انتهى المعرض الذي شاركت فيه أروى وسناء ومجيدة ونوزت ونور الأذان وبعض المهاجرات الأخريات. وقد حضرت المعرض المدرّسة "لورا"، و بصحبتها بعـــض القادمات الجديدات من بلاد مختلفة، وقد أعجبن بمحتواه، وأثنين على ما تميز به من إبداع، وشكرن كل من ساهم به

وبعـــد انـــتهاء المعرض، سافرت أسرة أروى إلى دمشق. فتلقاهم الأهل فرحين، وسعد الجدان برؤية الأحفاد، وقرت عيون الجميع باللقاء بعد فترة غياب طويلة.

وفي الـــيوم الـــتالي من الوصول قالت أم أروى: لقد أحضرنا البن الطازج خصيصا لهذه المناســـبة. فقامت بتحميصه، فامتلأ المترل برائحة البن العطرة وعبقها الأخاذ. وأحضر والدها مطحنة البن الخشبية القديمة والتي تشبه العلبة المكعبة في أعلاها ذراع حديدية، وفي نهاية هذه الذراع كرة صغيرة للإمساك، وفي أسفل هذه المطحنة الخشبية يوجد درج صغير لجمع البن المطحون.

فكان والدها يطحن البن ويضيف قليلا من "الهيل" فتزداد رائحة البن عذوبة.

وأما أختها نبيلة فقد أحضرت إبريقا بلوريا جميلا فيه عصير الحصرم الممزوج بماء الورد، والمضـــاف إلـــيه بعضا من مكعبات الثلج التي أضفت على الإبريق قطرات من الطل على جدرانـــه الملونة البهية، ثم قالت لها وهي ترتب المائدة: كلما قطفنا بعض عناقيد الحصرم من "دالـــية" المـــترل في الربيع وتقوم الوالدة بعصره وتكثيفه على موقد هادئ والاحتفاظ به في الثلاجة إلى حين قدومك، وحينها نذكرك كثيرا لأنك تحبينه و تحبين شرابه أيضا.

قالـــت أروى و هي تصب كأسا منه: أشكرك كثيرا لأنه شراب منعش، ويناسب أيام الصيف الحار في دمشق.

أما أخوها الصغير فقد حمل إبريقا من عصير التوت المثلج وقال لها: هذا شراب من شجرة التوت التي في المترل أيضا، أحبّه، وأحب أن تتذوقيه. وبعد أن شرب الجميع منه راح يسكب

الماء في أحواض النباتات المختلفة والتي امتلأت بها ساحة المنزل الرخامية. ويرش بالماء أحواض الشجر المسورة بالبورسلان المزخرف، وأصص النباتات المتنوعة من الخبيزة والبكونيا والريحان، ليضفي الرطوبة على ذلك النهار الصيفي الجميل.

قالت لها أختها: كلما جمعنا زهر الياسمين تذكرنا عقودك الجميلة.

قالت أروى: إذاً سأعود إلى عادتي القديمة لأبهجكم بها.

ومـــنذ ذلك الحين وفي عصر كل يوم، وعند نافورة الماء الرقراقة صارت أروى تقطف أزرار الـــياسمين البيضـــاء من شجرة الياسمين الكبيرة والمتسلقة على درابزين الدرج الحجري المـــؤدي إلى ســـطح المنزل المشمس، وتجمعها في وعاء مزخرف، ثم تنسقها في إبرة وخيط رفـــيع، وتؤلف منها عقداً جميلاً تتفتح زهراته الفواحة في المساء، فتملأ البيت أريجا عطرا و عبقا منعشا. وعندما تنهي هذا العقد الفريد تسألها أختها كعادتها: لمن سيكون هذا العقد اليوم؟ هل هو من نصيب الوالدة؟ أم الجدة ؟ أم العمة؟ أم الخالة؟

فتجيـــبها أروى: إنـــه من نصيب الوالدة المغرمة بكل شيء معطر، سمّه ما شئت، وردا جوريا، ياسمينا، زنبقا، أو حتى الصابون المعطر بأنواعه المختلفة.

الوالـــدة هي المفضلة دوماً بهذا العقد، لقد أمضت معظم وقتها بإضفاء اللمسات اللامعة والمعطـــرة عـــلى كل شيء في المنزل، لذلك تحب اللحظات التي تضع فيها هذا العقد حول رقبـــتها، لتمـــتع ناظريها برؤية زهراته الغضة تتفتح بالرغم من صغر حجمها وليونة ملمسها وبعدها عن الغصن الذي نمت عليه.

في ســـاحة هذا المنزل الكبير، وتحت شجرة مثقلة بالنارنج، وأخرى معمورة بالليمون، ووارفـــة مفعمة بالكبّاد، وكرمة متدلية العناقيد، ودوحة محملة بالتوت، وبين أحواض الورد يمتد البلاط الرخامي نظيفا لامعا وكأنه مرآة مصقولة، وتصطف كراسي الخيزران حول مائدة "الفورمايكا" الخضراء التي يعلوها الفاز الكريستالي المملوء بالأزهار الموسمية، لتكون جوا مريحا لســـكان ذلك البيت العربي الدمشقي الأصيل، ومكانا هادئا تجلس فيه أسرة أروى كل يوم للسمر.

وفي إحـــدى الجلسات السامرة قالت الأم لأروى: منذ أن سافرت افتقدتك وافتقدت عقدك الجميل كثيرا.

أجابت أروى وهي تداعب أزرار الياسمين المنثورة في الوعاء الزجاجي الملون: سأضم لك كل يوم عقدا إلى أن أعود إلى لندن.

قالـــت أمهـــا: في السنوات القادمة عندما تأتين لزيارتنا أطفالك بدورهم سيضمون لك عقود الياسمين أيتها العزيزة.

أروى: ما أجمل الصيف هذا العام، إنه معتدل الحرارة و ذو هواء عليل.

الأم: نعم يا بنيتي، إنه يختلف كل الاختلاف عن السنوات التي مرت لأنك تزورينا برفقة أسرتك.

أروى: إنـــنا نستمتع بصحبتكم، ولكن الذي يؤرقني هو تعثر الأطفال بالتحدث بالعربية وصعوبة تفاهمهم معكم ومع الأقارب.

الأم: لا تقلقـــي كـــثيرا يـــا أروى، إننا جميعا نحاول الكلام معهم بالفصحى، وهذا ما سيساعدهم على التكلم بالعربية.

أروى: لم نفكـــر بهـــذا الموضوع من قبل بسبب انشغالي في دورات الحياكة، وبسبب انشـــغال عزمي بالدراسة والعمل. لقد ظننا أن التكلم بالعاميةسيقود الأطفال لتعلم الفصحى فيما بعد، ولكن حين دخل الأطفال المدرسة بدءوا يجدون صعوبة في التحدث حتى بالعامية، وحـــين كنا نتكلم معهم بالعامية صاروا يفهمون ما يسمعون، ولكن إجابتهم على كلامنا تكون بالإنكليزية. ومع ذلك بقينا نظن أن مجرد انتقالهم إلى محيط يتحدث العربية سوف يحل هذه القضية.

الأم: إنهـــم بحاجة إلى أن يدرسوا العربية بطريقة منهجية، هناك مجموعة كتب متوفرة في هذا المجال من المفيد أن نحصل عليها.

أروى: وهناك مجموعة أشرطة لتعلم المحادثة بالعربية. غدا نذهب إلى المكتبة لشرائها.

طافت أسرة أروى مصايف دمشق الجميلة، وأماكنها الأثرية، ومضت هذه الزيارة على جناح السرعة، وحان وقت السفر مرة أخرى، وتهيأ الجميع له .

الفصل الثالث عشر:

حان السفر

اقتربـــت ساعة السفر، وتوقف والداه برهة ليملأا عينيهما برؤيته قبل موعد الانطلاق إلى المطـــار، وهو بدوره كان يصغي إلى كل كلمة تخرج من منبع الحب غير المشروط، ومنهل العطف اللامتناهي، والعناية التي لا تعرف الملل، والعين الساهرة حوله دائما وأبدا، هكذا كان والـــداه. أما شافع الوراق فكان أصغر اخوته، والصغير يظل صغيرا في عيني والديه ولو كبر وأصبح شيخا كبيرا.

قال الأب: لقد بلغتَ سن الشباب، وأصبحت مسؤولا عن نفسك، و لم تعد بحاجة إلى رقيـــب عليك، وعهدي بك إنسانا مجدا ونشيطا ومثابرا، وأنا متأكد أنه لن يخيب ظني بك أبدا.

الأم: عليك أن تتقن اللغة، وإن لم تفعل فإن جزءا كبيرا من قدراتك ومواهبك سيبقى في حالة خمود، أو ربما يتلاشى، وحينئذ ستجد الدراسة صعبة.

الأب: وأما لغة الثقافة فإن استيعابها يحتاج إلى وقت ودراية.

الأم: لا تســـتغرب حين تسمع أراء جديدة من المهاجرين الذين تلتقي بهم، لأن السفر ورؤيـــة أنماط متنوعة من الحياة، وأجناس متعددة، تجعل للإنسان نظرة جديدة للحياة، وليس معـــنى ذلك أن الإنسان تنكر لأصله، أو تخلى عن جذوره، ولكن رؤيته للعالم أصبحت من أفق جديد.

الأب: الحـــياة في تطـــور مستمر، وأن يكتسب الإنسان مهارات جديدة سواء أكانت تعليمية أو غيرها أمر محمود ما لم يشتط عن الصواب.

الأم: لكل إنسان منظور يرى من خلاله الحياة، ويراه الآخرون من خلاله أيضا.

شافع الورّاق: وما هو المنظور؟

الأب: المـــنظور، هـــو مساحة وهمية تحيط بالإنسان، وله زوايا متعددة بتعدد مهارات الإنسان وخبراته ومميزاته الثقافية، هذه الزوايا بعضها مرتب حسب أولوياته، وبعضها مرتب

حسب أولويات المجتمع الذي أتى منه. هذه المساحة يرى الناظر من خلالها إلى شخصية هذا الإنســـان، وهـــذه الزوايا ربما يزداد عددها بالمران والتعليم والإطلاع، وربما يتناقص عددها، وأحـــيانا تزداد سعة زاوية على حساب زاوية أخرى، وأحيانا يسلط الضوء على زاوية فتبدو أكبر مما هي عليه.

هذا المنظور إما أن يصنعه الإنسان نفسه، أو يصنعه له الآخرون، أو تصنعه له الحياة، وقد يكون مزيجا من العناصر السابقة بنسب متفاوتة في الإسهام في صنعه.

وهو إما أن ينمو مع الإنسان ويتسع ويتنوع، وإما أن ينقبض فلا يستطيع أحد رؤية هذا الإنسان، و لا يستطيع هذا الإنسان رؤية أحد من خلاله.

وكذلـــك فهو يصاحب الإنسان حيث يذهب، وإن هاجر فإنه يهاجر معه، ويكتسب أبعادا جديدة. وإن حاول المسافر الانسلاخ عن المنظور الذي نما معه رغبة في أن يبني منظورا جديـــدا منسلخا تمام الانسلاخ عن المنشأ الذي أتى منه فسوف يلازمه الشعور بأهمية العودة إلى الجذور، وجعل أصله شيئا مهما وحاضرا في جديده الذي يحياه دائما.

شـــكر شافع والديه، وبعدها توجهت الأسرة جميعها إلى المطار لتودعه متمنية له النجاح والتوفيق.

الفصل الرابع عشر:

شافع الورّاق

كـــان ينظر من خلال النافذة إلى بلدته العريقة حين كانت الطائرة تعلو في الفضاء. بدأ حجـــم البلدة يتضاءل أمام عينيه، وبدأت معالمها تتوارى بين التلال، ولكن مكانتها في نفسه بدأت تكبر وتكبر من حيث لا يدري. هذه أول مرة يدرك فيها تماما ويكتشف مدى تعلقه بهذه المدينة الطيب أهلها والعزيزة على نفسه. بدأ يفكر بأشياء لم تخطر على باله من قبل، لماذا يسافر؟ ولماذا يبتعد عن أهله؟

لقد أنهى دراسته الثانوية معهم، وبإمكانه أن يتابع دراسته معهم، إنها رغبة والديه وليست رغبته. إنه يحتاج إلى من يقنعه ثانية بأهمية سفره للتحصيل العلمي. أحس بأن كلام والديه بقي في دمشـــق، و لم يسافر معه، وصار يبحث عن مسوغ يقنعه بضرورة سفره بمفرده، وتحمل مشقة الابتعاد عن المحيط الذي نشأ فيه.

لقد سافر والداه قبله منذ زمن طويل، واستطاع والده الدراسة في لندن، ولكن كل ذلك كان بمحض إرادته وبرغبته الخاصة، وهل عليه أن يحذو حذوه في كل شيء لكي يصبح مثله تماما؟

فكـــر قليلا، ثم قال: ما جدوى هذه التساؤلات ما دمت في طريقي إلى لندن الآن؟ ثم عـــادت إلى ذهـــنه نصائح والديه، عليك أن تدرس وتتخصص، لتبني مستقبلك كي تصبح رجلا يستطيع تحمل مسؤولية نفسه وأسرته.

حـــين غمرته كلمات والديه ثانية استجمع قواه الفكرية، وفتح الحقيبة التي كانت معه ثم اخرج أوراق قبوله الرسمية التي تلقاها من الجامعة، وصار يراجعها.

الفصل الخامس عشر:

الوصول

حين وصل شافع إلى المكان الذي حجزه بالمراسلة، وجده عبارة عن شقة يشاركه فيها الماليزي "نوظيمي" الذي كان يدرس علم الإدارة. كان "نوظيمي" يتكلم بصوت منخفض، ويرتدي الزي الماليزي دائما، وحين يسير في مجلس فيه أصدقاءه يحني ظهره ولا يستقم إلى أن يتجاوزهم حتى لا يحدث إزعاجا للجالسين.

بالرغم من استئناس شافع بصديقه الجديد، إلا أنه كان يستصعب فهم كلامه بالإنكليزية بسبب تغلب لهجة كلامه الماليزية على حديثه بالإنكليزية، والتي لم يعتد على سماعها من قبل. عرّفه نوظيمي على أصدقاء جدد من بلاد مختلفة. وبالرغم من ذلك كله، بقي الحنين إلى أهله مخيما عليه. ومنذ ذلك الحين، وكلما غادره النوم، وتوارى على جنح ليل شتاء لندن الطويل، أو حين يفر منه باكرا على رفة جناح أول طائر يغرد بعد انقضاء ليل صيف لندن القصير، يتلاشى ليله ومعه صورة بلدته العتيقة القابعة على سفح جبل قاسيون الذي لفحته الشمس بطيفها الوردي و أسبلت عليه اللون البرونزي. يصحو من نومه وكأنه وصل لتوه من سفر قارب الخمس ساعات في الطائرة،كل شيء كما عهده منذ مغادرته بلدته الأثرية. يستيقظ وفي أذنيه صوت والديه واخوته، يستيقظ وشوارع مدينته القديمة ومقاهي منتزهاتها الجميلة حاضرة في ذهنه كأنه غادرها الآن. يتثاءب، ثم يفرك عينيه و يتمتم بهدوء: لقد صدق من قال: "السفر صفحة حديثة في كتاب حياة الإنسان".

الفصل السادس عشر:

عبر الهاتف

الأب: السلام عليكم

شافع: وعليكم السلام

الأب: كيف حالك يا بني؟

شافع: بخير، وكيف حالك أنت وأمي وإخوتي؟

الأب: جميعهم يسلمون عليك، كيف دراستك؟

شافع :على ما يرام.

الأب: هل ما زلت تنام متأخرا كعادتك؟

شافع: أفضّل الدراسة في المساء كما تعرف، وكذلك صديقي

الأب: أرجو أن لا تتكلم كثيرا في نومك حتى لا توقظ صديقك

شافع: صديقي لا يفهم العربية لذلك لن يوقظه كلامي.

الأب: ألا زلت تتكلم العربية في نومك؟

شافع: أظن ذلك.

الأب: معنى ذلك أن لغتك بحاجة إلى تقوية.

شافع: أحاول ما بوسعي إتقانها.

الأب: لن تتعلم هذه اللغة كما يجب إلا إذا تكلمت بها حتى في نومك.

شافع: اطمئن يا أبي أحلامي مرة أراها ناطقة بالعربية و مرة ناطقة بالإنكليزية.

الأب: وماذا تفعل حتى تستيقظ باكرا؟ إن نومك ثقيل.

شـــافع: بعد أن نصلي الفجر نعود إلى النوم، ثم نستيقظ كل يوم على صوت قرع باب الشقة.

الأب: لماذا؟

شافع: لأن الطلاب الذين يسكنون في الشقة المجاورة يطلبون منا إيقاف المنبه الكهربائي.

الأب: ماذا تفعل في أوقات فراغك؟

شافع: أحاول تعلم لغة عالمية، كما أحاول الحصول على جواز سفر عالمي.

الأب: ماذا تعني؟

شافع: أحاول الانتساب إلى فرقة كشاف هنا، فأنا أحب حياة الكشافة.

الأب وهو يحاول السيطرة على مشاعر الغضب: لا يا بني، هذا ليس وقت الانتساب إلى الكشافة، الزم دراستك الآن، وحين تنهي دراستك تفكر بهوايتك، أما الآن فلا مجال لمشاريع تستهلك وقتا أنت بأمس الحاجة له.

شافع: أرجوك يا أبي إنه لا يأخذ من وقتي الكثير.

وقـــبل أن يتم شافع كلامه، قال الأب بحزم: دراستك تتطلب منك أن تكرس لها جل وقتك.

شافع: حسنا يا أبي.

الأب: إلى اللقاء.

شافع: إلى اللقاء.

الفصل السابع عشر:

ولو في الصين

هكـــذا كانت نصيحة والديه، أن ينهل من معين العلم الثر الذي لا ينضب، و أن يسافر إليه ولو كان في أبعد بلاد العالم. و بالرغم من الاكتشافات التي أثبتت أن الأرض كروية، و أن بُعـــد الصـــين وقـــربها يتوقف على البلد الذي يوجد فيه الإنسان، مع ذلك ظلت هذه الكلمات مضرب المثل إلى الآن: اطلبوا العلم و لو في الصين.

لقـــد شد الرحال وسافر امتثالا لمكانة العلم في الحياة، وانكب على القراءة والدرس ليلا ونهارا.

إن رسائل والديه المتواصلة له، واتصاله المنتظم بهما، جعلت منه طالبا مجدا يذهب إلى كل مكان فيه شيء من العلم.

شـــافع كان يعرف كيف يدرس، ولكنه لا يعرف كيف يرتب غرفته، ولا كيف يطهو لنفســـه وجبة طعام. وبما أن سكنه مع نوظيمي الماليزي، كان عليه أن يتعاون معه في ترتيب وتنظـــيف البيـــت. مثل هذه الأعمال لم يقم بها طوال حياته في دمشق، لأنه أصغر اخوته، والكل كان يعتني به إلى أن سافر.

في البداية قدّر نوظيمي وضعه، وغض الطرف عن تقصيره وعدم قيامه بدوره في الترتيب والطهي. ولكن بعد مضي فترة لابأس بها من الزمن، بدأ يذكره بواجباته المترلية. عندها أخبره بصـــراحة أنه من الصعب عليه القيام بمثل هذه الأمور باستمرار ، ولكن وعده بأن يحاول ما بوسعه لتلافي هذا التقصير.

ومـــع مـــرور الأيام أحس بأن هذه الأعمال المترلية تشكل عبئا عليه وصارت تأخذ من تفكـــيره ومن وقت دراسته. فبدأ يفكر بالعودة إلى بلده والجلوس في كنف والديه اللذين لا يـــرهقانه وينفذان له كل ما يريد. إن الدراسة دون تلك الرعاية الدائمة جعلت من سفره أمرا صعبا. لذلك أخبر صديقه نوظيمي برغبته بالعودة إلى أهله.

حـــاول نوظيمي أن يثنيه عن عزمه، فحدثه عن تجارب بعض الطلاب الذين يعرفهم في

الغربة، وكيف تغلبوا على مثل هذه الأمور، وكيف استطاعوا تدبير شؤونهم اليومية، وكيف رتّبوا أعمالهم المترلية والدراسية معا.

حاول شافع أن يستفيد من هذه التجارب، كما أنه تلقى بعض الرسائل من أبويه يسديان له فيها بعض النصائح التي تساعده على تخطي هذه العقبات، وبعدها حاول شافع بداية عهد جديد، وذلك بوضع برنامج يومي ينسق فيه أعمال المترل وأوقات الدراسة.

الفصل الثامن عشر:

إعجاز الحق

حـــين تعرّف شافع على إعجاز الحق عن طريق صديقه نوظيمي ،كان لا يزال طالبا في الفـــرع الـــذي يدرس فيه هو، وهو فرع الطاقة الشمسية، أحسّ بالارتياح لأنه استطاع أن يتناقش معه عن أمور دراسية و جامعية كثيرة كانت تشغل باله.

ولقد جمع بين هذين الصديقين شيء آخر، وهو عدم تناولهما المأكولات الحارة و المبهرة.

وفي يـــوم من أيام العطلة دعاه إعجاز الحق للذهاب إلى المتحف، رحب شافع بالفكرة، وذهب معه محاولا الترفيه عن نفسه.

وصـــل الصـــديقان إلى المتحف، وسارا في أروقته العريضة، وشاهدا محتوياته المعروضة بطـــريقة مبـــتكرة. لفت انتباه الصديقين المخطوطات العربية، تسمّر شافع في مكانه حين شـــاهدها لبرهة، ونظر إليها متفحصا ومسرورا معا. قال له إعجاز الحق حين رآه على تلك الحال: هناك المزيد من المخطوطات في البهو الذي يلي هذا المكان.

أحـــسّ شافع وهو يقف أمام هذه الأوابد الخالدة بأنه كالشاعر القديم الذي يقف على الأطـــلال، و الفرق بينه و بين الشاعر القديم أن كلاهما عاشا في زمنيين مختلفين، وما ربط بيـــنهما هو السفر والترحال أولا، والوقوف على الأطلال ثانيا. ولكن الأطلال هنا رممت وحفظت، وصارت تعد من النفائس.

قال إعجاز الحق: إن البشرية مدينة لمخترعي الحروف والكتابة كثيرا لأنهم أوجدوا بذلك رسولا بين الفكر والكتابة، وحموا فكر الإنسان من الضياع.كما أنهم أوجدوا بذلك صورة لكلام الإنسان .

قال شافع: إن صورة كلام الإنسان متعددة بتعدد اللغات.

قال إعجاز الحق: إن البشرية مدينة لمخترعي الأوراق و الأقلام و الطباعة، لأنهم حفظوا ما دون من الضياع و الانقراض، إذ لولا إيجاد هذه الوسائل لما تقدم الإنسان، ولما عرف ما اخترعه العباقرة، وما خطته أيدي المبدعين في العلم و الأدب منذ القدم وإلى الآن.

أمعـــن شـــافع النظر مرة أخرى في المخطوطات، فوجدها تحفة نادرة تقبع في واجهات زجاجية لامعة، وفي مكان بهي أنيق مرتب، وكأن أحدا لم يرتده من قبل، أو لكأنه انتهى لتوه مـــن العمار. لقد سافرت هذه الأشياء الفريدة عبر الزمان والمكان، و بقيت أثرا من ماضي حضـــارة أحبت التعلم وأجلّته، وجعلته في منزلة العبادة، وجعلت من حب العلم والحج إليه ثوابا يستحق لطالبه تقديس الملائكة، واستحسان كل حي على هذه الأرض. إنها من بلده، وتســـتحق أن يعود إليها كلما شده الشوق إلى الوطن ليجدها ملاذاً، وصديقا من التاريخ في الغربة.

لقـــد سبقه جزء من تاريخه إلى هذا المكان، وقبع في ذلك المتحف ليلتقي بالناس ويكون ملهماً من الماضي للمسافرين أمثاله و دافعا لهم لمواصلة البحث و الدرس.

ومـــنذ ذلك الحين، وكلما شعر شافع بالحنين إلى وطنه، يتجه إلى المتحف ليزوره، وإذا تعذر ذلك يفتح التلفزيون، ويبحث في قنواته عن أي شيء يتعلق ببلده، وإذا تعذر ذلك يتوجه إلى المكتـــبة ليبحث عن كتاب ألف عن مدينته، وإذا وجد ما يريد يقرأه، وفي حالة إعجابه بمحتواه يشتريه و يحتفظ به.

لاحظ إعجاز الحق أن شافع يرتاد المتحف كثيرا، فقال له يوما: إن المتاحف تفيد الذين لا يقرءون، وأنت تقرأ كثيرا.

فأجـــاب شـــافع: أحب أن أزداد علما من خلال زيارة المتاحف، وهذه أسهل طريقة للتعرف على مواضيع متنوعة من المواد المعروضة فيها.

الفصل التاسع عشر:

ماذا يفعل ؟

الفصـــل صيف، والطقس مشمس، والجو ممتلئ برائحة العشب المقصوص العطرة. سار شـــافع وهو مسرور بذلك اليوم المعتدل، إنه على موعد مع صديقه عزمي لاكتشاف اللغة العربية من جديد. وقف انتظارا للباص فترة طويلة، ولكن الباص تأخر كثيراً. ومن ثم تلبدت السماء بالغيوم الداكنة، وهطلت الأمطار الغزيرة. وخلال دقائق ابتل شافع بصورة لم يعهدها مـــن قبل، فعاد إلى المترل مسرعاً والماء يقطر من ملابسه. لم يكن يتوقع مطراً غزيراً إلى هذا الحد في فصل الصيف.

حين رآه نوظيمي قال له: لقد عدت مبكرا.

شـــافع: لم أكـــن أعرف أن للشتاء حضورا على مدار العام هنا. عندما كنت في سورية حفظت مثلا قديما يقول: "في شهر تموز يغلي الماء في الكوز". أما هنا فلا ينطبق هذا المثل على هذا الطقس أبداً.

نوظيمي: ربما ينطبق عليه في بعض الأيام.ثم تبسم نوظيمي وقال: في ماليزيا الأمطار تهطل على مدار العام.

شافع: أحياناً تمر الفصول الأربعة هنا في يوم واحد في الصيف، لدرجة أنني لا أعرف ماذا أرتـــدي؟ إن مجرد رؤيتي للأمطار يعني البرد و الشتاء. وأظن أنه يجب عليّ اصطحاب المظلة دائما.

نوظيمي: لماذا لا تستعمل المعطف الواقي من المطر؟ يوجد أنواع سهلة الحمل و الطيّ ولا تحتاج إلى مكان كبير للاحتفاظ بها، وما عليك حين تنتهي من استعماله سوى لفه و وضعه في جيـــب من جيوب حقيبة الجامعة. ثم فتح نوظيمي حقيبته، وأخرج معطفه وبسطه أمام شافع وقال له: إنني لا أتخلى عنه أبدا.

شافع: سأحاول الحصول على واحد في أقرب فرصة.

نوظيمي: سأدلك على المتجر الذي يبيع هذه الأصناف.

شافع: هل تعرف أنني لم أذهب لزيارة عزمي بسبب تأخر الباص؟

نوظيمي: عليك اقتناء جدول مواعيد الباصات، لأن الباصات هنا تأتي في أوقات معينة.

وبعد أن ذهب نوظيمي إلى الجامعة اتصل شافع بعزمي هاتفيا، واعتذر لعدم حضوره على الموعـــد المحدد. وفي المساء أحس بعوارض الزكام فلبس ملابسه الشتوية، و أعدّ فنجانا من الشـــاي الســـاخن، وجلس بجانب المدفأة الكهربائية، وصار يفكر بأهله. كان يستيقظ في الصـــباح فـــيجد ملابسه مرتبة في الخزانة. ويعود في فترة الظهيرة ليجد البيت نظيفاً، والغداء الساخن في انتظاره، وفي المساء يرتب أمور دراسته لليوم الذي يليه.

في ذلـــك اليوم كتب شافع رسالة لوالديه وأخبرهما بعزمه على الرجوع إليهم لأسباب كـــثيرة. وما أن بلغت رسالته والديه، حتى فكر كلاهما بالسفر إليه لمؤازرته والمكوث معه، ولمساعدته على المضي قدما في دراسته.

الفصل العشرون:

مرحلة جديدة

بعد جهود حثيثة بذلها الوالدان، استقرت أوضاع شافع بعض الشيء، وعاد إلى الدراسة بعد أن تركها، وفي أوقات فراغه صار يطالع كتباً متنوعة. لقد كانت المطالعة في البداية نزولاً عند رغبة والديه، ثم أصبحت لأجل الدراسة، ثم صارت هواية، ثم عادة دائمة.

بعد مدة من الزمن، لم يعد شافع ذلك الإنسان الهادئ الذي يقرأ كتبه بصمت، بل أصبح غزير العلم كثير النقاش، يتقن النقد والتفنيد إلى حد بعيد.

وبعـــد أن نجـــح في دراسته الجامعية بتقدير ممتاز، عاد ليقضي العطلة الصيفية مع أسرته، وهـــناك حاول أن يبرهن لوالديه على ما قرأه بمناقشة الأفكار الجديدة التي كانت إما حصيلة الإطلاع على كتب جديدة، وإما نتيجة التفكير المستمر بما قرأه عن الماضي والحاضر.

لقد فوجئ والداه بمقدرته على التحدث بالفصحى، فسأله والده : منذ متى بدأت تمارس الفصحى تكلماً؟

شافع: منذ أن أدركت خصائص هذه اللغة القديمة الحديثة.

الأب: مـــرحى لك، ولكن لا يمكن أن تتكلم بالفصحى مع أقربائك وأصدقاءك طوال الوقت.

شافع: لماذا يا أبي؟

الأب: إنها ليست من اختصاصك ولا من دراستك، لذلك دعها لمن يعمل بها.

شـــافع: إن دراســـة قواعد العربية و نحوها مهم، وأن تكون مختصاً بها شيء مهم أيضاً، ولكـــن التكلم بها وممارستها هو بيت القصيد. ألا تعلم بأن التحدث بالفصحى قد يسّر لي سبل التفاهم مع الطلبة الذين التقيت بهم من بلاد عربية مختلفة؟

الأب: أعرف ذلك يا بني، و لكن عليك الآن أن تسترخي وتتكلم العامية حتى يستطيع جداك فهم ما تقول.

شـــافع: لقد ظننتك ستشجعني على ذلك. وقبل أن يتم شافع كلامه اتصل به صديقه

هاتفياً، فقام ليرد عليه.

في هذه الأثناء نظر الأب إلى ابنه وهو يتكلم مع صديقه على الهاتف بحيرة وقال في نفسه: إنه يمر بمرحلة جديدة، لم تعد تلك الآراء والتعليلات التي كانت تقدم إليه منمقة وجاهزة تملي عليه تفكيره، لقد بدأ يبني أفكاره بنفسه بعيداً عن المحيط الذي اعتاد الحياة فيه.

لقـــد أصـــبح يرى الأشياء من زاوية الإنسان الذي يمر بمرحلة النضج، ورؤية العالم من منظور حديث.

لقـــد أصبح دائم البحث عن تفسير لكل ما يراه أو يقرأه أو يسمعه، ويحاول البحث عن قـــناعات وأدلة تطمئنه بأن كل ما يقوم به في هذه الظروف المحيطة به هو شيء صحيح ولا غبار عليه.

لقد استطاع أن يستنفد في سفره منفردا بعضا من طاقاته التي كانت كامنة فيه، والتي لم يكن ليدرك منها شيئاً لولا تجربته الجديدة.

الفصل الواحد والعشرون:

اللقاء

الأيام تمضي وتتوارى فيها الفصول وما تحمله من سمات تزين بها الكون في أوقات متتابعة لتضـــفي علـــيه خصائصا فيها الحركة والتنوع وتجديد الحياة. ولى الصيف وجاء الخريف ثم الشتاء وعاد البرد والصقيع، وخلت الأشجار من لون الخضرة، وملأ الغيم الرمادي السماء. إلا أن بيت أروى مملوء بالنباتات المترلية حتى استحالت غرفة الجلوس إلى حديقة مدارية غناء.

إن أروى تحـــب النـــباتات المترلية، وتعطيها من وقتها ما يكفي لكي تبقى زاهية تنمو وتزهر، وتضفي على البيت ألواناً من الطبيعة لا يبددها البرد ولا الثلج ولا تقلب الفصول.

أمـــا حيطان غرفة الجلوس، فقد ملأتها بلوحات الكنفا المشغولة إما بالخيوط الملونة وإما بخـــرز السيلان اللامع. لقد كانت تنجز كل لوحة خلال أسابيع قليلة، ثم تضع لها إطاراً بعد ذلـــك، وتـــزين بهـــا جدران المترل. وأما الأرائك فقد وزعت عليها وسائد مريحة مطرزة بالأغباني.

في هـــذا الجو المملوء بالديكور، كانت تجلس كعادتها في أوقات انتظار بعض صديقاتها تقـــوم بعمل فني ما تشغل وقتها به إلى أن يحضرن. في هذا اليوم كانت على موعد مع مجيدة وســـناء للتحدث بأمر المعرض القادم، وما هي إلا لحظات حتى أتت الصديقتان على الموعد المحـــدد، و بصحبة سناء طفلها الصغير شكيب. رحبت بهما أروى بحرارة و أجلستهما في غـــرفة الجلوس. وما أن وقعت عيناهما على قطعة الكنفا الملونة حتى أبدت كل واحدة منهن إعجابها الشديد بها، وشجعاها على عمل المزيد من ذلك.

بدأت الصديقات تتحدثن عما يمكن عمله للمعرض القادم.

اعتذرت سناء عن المشاركة في هذا العام لأنها تشعر بالتعب نتيجة الحمل.

فوجئـــت أروى بقـــرار ســـناء هذا فقالت لها: ألذلك السبب توقفت عن درس اللغة الإنكليزية؟

سناء: نعم

أروى: ولكـــن عـــدم تكلمك الإنكليزية سيجعلك إنسانة معتمدة كل الاعتماد على الآخرين في أعمالك خارج المترل، وحتى داخله.

سناء: إنني أعرف الفرنسية، و لقد خططت مع زوجي بأن تكون هذه المدة هي مرحلة إنجاب الأطفال وتربيتهم، وفيما بعد سأعود إلى مشاريعي التي كنت أقوم بها قبل الحمل.

مجـــيدة : أعـــرف كـــثيراً من النساء اللواتي لا يتكلمن الإنكليزية، و جميعهن يواجهن صعوبات في الخروج من المترل.

سناء: لقد نصحني زوجي بملازمة المترل للعناية بطفلي الصغير، كما أنني أتوقع مولودا بعد أشهر معدودة.

أروى: بعد الولادة لن يكون لديك فراغ أبداً لأن الطفلين سيستهلكان كل وقتك.

ســـناء: ســـأحاول استعمال كتب تعلم الإنكليزية و الدراسة فيها. ثم أخرجت مجموعة أوراق فيها ترجمة من اللغة الفرنسية، و أعطتها لأروى وقالت لها : لقد ترجمت لك أشياء عن كيفية تصميم البترونات.

أخذت أروى الترجمة، وشكرتها كثيراً على ذلك وقالت لها: هذا إسهام مهم في المعرض لأننا نحصل بذلك على أفكار جديدة.

مجـــيدة: لم نكـــن نعرف أنك تتوقعين مولودا، ولكن يبدو أنك محظوظة لأن موضوع المعرض لهذا العام هو ملابس الأطفال.

أروى: لـــن تتحمل سناء أعباء الذهاب إلى السوق وشراء الملابس الجاهزة، لأن المعرض سيكون مليئا بالملابس الجديدة.

وبـــدأت الصـــديقات بتوزيع مهام بقية المشتركات في التصميم والخياطة. وما أن انتهى الجمـــيع مـــن ذلك حتى استأذنت الصديقتان بالانصراف على أمل اللقاء مرة أخرى لإنجاز ترتيبات المعرض.

الفصل الثاني والعشرون:

إعلان في الجريدة

كان نفيد ينصت إلى المذياع ويعمل كعادته حين دخل عليه سامر وبيده الجريدة اليومية. ألقـــى قـــتادة السلام عليه، وهو متشوق كعادته لسماع أحاديثه المتجددة دائما، والمملوءة بالمعلومـــات، لكن نفيد كان عابسا. فسأله قتادة عن سبب ذلك؟ فأجابه : تصور أن إعجاز الحـــق لا يحـــب أن يحدثني باللغة الأردية، و لا يريد أن يتعلمها، و فوق ذلك كله لا يحب البهارات مطلقا. في كل مرة يمر فيها أمام المطعم مع صديقه شافع، يسلم عليّ من بعيد ويقول لي: معذرة يا أبي، لا نستطيع تناول الطعام المبهر عندك، لذلك نحن ذاهبان إلى محل (الفيش أند شيبس)(٣) أو إلى محل (البيتزا) لتناول الغداء هناك، كلانا لا يستطيع مضغ الطعام الحار. إنه لم يشجع صديقه ولا مرة واحدة على تناول أي وجبة عندي. منذ أن كان صغيرا كانت أمـــه تطهـــو له طعاما بدون بهارات، وكبر وكبرت معه هذه العادة الغريبة . إنه لا يحب أن يقلدني ولا بشيء واحد.

يا الهي كم أنا متضايق من تصرفاته التي لا تمت إلى جذورنا الهندية بصلة.

انه شاب لا يعرف مصلحته، كل هذا بسبب عدم إخراجه من المدرسة في سن مبكرة.

بعد أن أنصت سامر إليه، فتح الجريدة وقال له: لدي خبر يطيب من خاطرك قليلا.

قال نفيد وهو مقطب الحاجبين: ما هو؟

سامر وهو ينظر إلى الجريدة: سيقام معرض خاص لتبين مراحل اختراع الراديو، والطريقة التي تطور بها منذ أن بدأت هذه الفكرة إلى يومنا الحالي، هل تذهب إليه؟

انفرجت أسارير نفيد وقال: متى يبدأ؟

ســـامر: في الأسبوع الأول من الشهر القادم، وسيفتتح المتحف أبوابه للزوار كل يوم من الساعة السادسة إلى الساعة الحادية عشرة مساء.

---

(3) الفيش أند شيبس: السمك والبطاطا المقلية وهي وجبة إنكليزية شعبية

نفيد: سأفكر بالأمر.

سامر: تعال و اقرأ الخبر إذا أردت.

ولكن نفيد بقي في مكانه وقطب حاجبيه، و بدا لسامر وكأن شيئا أزعجه.

فقال سامر في نفسه: يبدو أن صديقه متعب وأن العمل متراكم عليه، فتقدم منه وقال له: ما بك يا نفيد؟

سامر: سأترك عندك الجريدة لتطالع الخبر حين تنهي أعمالك.

قـــال نفـــيد وهو عابس الوجه: بما أنك أخبرتني عن الموعد لا داعي لأن تترك عندي الجريدة.

فحمـــل سامر الجريدة، واستأذنه بالذهاب، ومضى وهو يقول في نفسه: لقد ظننت أنه سيفرح بهذا الخبر السار، وسيحتفظ بالجريدة ليقرأها ولا ينسى الموعد. فكر برهة وقال: لماذا لم يقرأ محتوى الخبر بنفسه؟ ربما لأنه مشغول جدا بعمله.

الفصل الثالث والعشرون:

النجاح

أثمر دأب مجيدة فيما بعد نجاحا باهرا وتخرجت من الجامعة بتقدير جيد. ثم حصلت على عمل في مؤسسة حكومية تعمل في مجال الجغرافية.

زفت أنباء البشرى السارة إلى أمها نوزت صديقتها نور الآذان. لم تتمالك الأم نفسها عند سماع الخبر، وترقرقت عبرات الفرح من عينيها الواسعتين، بينما جلس الأب على كرسيه الهزاز كالمعتاد، واستغرق في صمت عميق.

تقدمت الأم منه وقالت بصوت هادئ: ألا تتراجع عن قسمك الآن يا نفيد؟ لقد آن أوان عودتها إلينا إن كنت صادقا في محبة أولادك، عليك أن تكلم ابنتك وتهنئها بسرعة.

تسمّر نفيد في مكانه، وتوقف كرسيه الهزاز عن الحراك، ثم مدّ ذراعيه إلى الأمام وشابك بين أصابعه وقال وهو حزين: لم أكن أتوقع يوما أن يخرج إعجاز الحق عن طاعتي قيد شعرة، ولا حتى المطيعة مجيدة.

قالت نوزت لدى سماعها كلمات نفيد المثبطة: عليك أن تنسى الماضي ولو لساعة، وتكلمها بالرغم من كل ما حدث فهي ما تزال ابنتنا.

رفع نفيد رأسه ونظر إلى زوجته وقال لها: ماذا تريدين مني أن أقول لأختي وابنها؟ إنهما لا يزالان يتصلان بي، ولا زلت أختلق الأعاذير. إنه وعد علي، وعليّ أن أفي به مهما يكن الأمر. ماذا سيقول عني الناس لو أخلفت بوعدي؟

نوزت: دعنا من كلام الناس الآن، وفكر بابنتك. ألا تعلم بأن صديقتها نور الآذان أخبرتني بأن مجيدة مشتاقة لرؤيتنا جميعا في المترل، ولكنها تخشى المجيء مخافة غضبك.من المؤسف أن تفكر بما سيقوله عنك الناس ولا تفكر بمشاعر ابنتك التي تركتها تشعر بمرارة القطيعة، وأنت لا تزال على قيد الحياة. لماذا لا تقول أننا لم نفهم مجيدة وإعجاز الحق؟ لماذا لا تقول أننا لم نحسن التصرف، و لم نستطع استيعابهما في مثل هذه الظروف الصعبة؟

ألا تفكر بما يجول بخاطرها وخاطر أخيها الآن؟

لقـــد أخـــبرتني نـــور الآذان أيضا أن مجيدة كانت تودّ لو أننا بجانبها لحظة سماعها خبر التخرج، و لم يشاركها هذه اللحظات السعيدة سوى إعجاز الحق.

قـــال نفيد بنفاد صبر: لقد وقف إعجاز الحق إلى جانبها لأنها وقفت بدورها إلى جانبه وأيدت تصرفاته التي لا تليق بشاب مثله تجاه والده.

فقالـــت نوزت بهدوء: أما أنا فلن أتخلى عنهما. وأما أنت فقساوتك لا مبرر لها في مثل هذه الظروف.

لم يدر نفيد ما يقوله لنوزت، ولكن كلماتها جعلت من خياله بحرا يفيض بصور لا نهاية لهـــا. تذكر إعجاز الحق و مجيدة حين كانا طفلين صغيرين يبشان لرؤيته كلما دخل البيت، وعـــادت إلى مســـامعه كلمات إعجاز الحق الذي كان يناديه أحيانا باسمه السيد نفيد أسوة بالزبائن عوضا عن كلمة بابا، وكيف كان يتعلق به حين يريد مغادرة المنزل.

صـــار يتذكر وكل شيء مرّ بخياله عن تلك الطفولة كان مثيرا لكوامن السرور في الأيام الغابـــرة. ولكـــن تلك اللحظات الحلوة سرعان ما تبددت عندما تذكر ما فعلاه كلاهما في الآونـــة الأخيرة. صار يتساءل: لماذا أفسد عليه أولاده ما خططه لمستقبلهم؟ لماذا تأثرت ابنته بصـــديقاتها، و لم تصبح مثل أمها زوجة مخلصة؟ لماذا تأثر إعجاز الحق بأصدقائه و لم يصبح نســـخة عنه طاهيا ناجحا؟ إن ابنته صارت تدرس مثل صديقاتها الماليزيات، وتتكلم مثلهن وتلبس مثلهن أيضا.

أحـــسّ نفيد بأن قطار الحياة الذي رسمه في بومباي بدأ ينحرف عن السكة الرئيسية التي رسمها ليتخذ طرقا فرعية جديدة، بدأ يخطها أولاده.

ماذا سيفعل؟ لقد ارتاد أولاده مدارس في لندن لا يعرف عنها شيئا.

صـــار يشـــعر بالأسف على نفسه مرة، ومرة بالغضب على تلك الكتب والمدارس التي اســـتلّت منه أولاده. هذه الكتب هي الجسر الذي استطاع أن يعبره أولاده بسهولة إلى عالم كان أبعد ما يكون عنه بسبب انشغاله بتأسيس عمله الذي تطلب منه كل أوقاته.

الفصل الرابع والعشرون:

وجهة نظر

أروى: إن مناهج تدريس العربية بحاجة الى تطوير.

عزمي: لقد حدثني شافع بضرورة هذا الأمر مرات عديدة. كما أن العديد من الأصدقاء أخبرني بأن أولادهم يجدون صعوبة في دراسة المناهج.

أروى: أحـــاول البحث عن أفضل الطرق لتجديد مناهج تعليم العربية وجعلها ميسرة، ولكن يبدو أن الأمر بحاجة الى عمل جدي.

عزمي: النظر في بداية نشوء النحو العربي وبالمؤثرات التي مر بها ربما يساعد على اكتشاف طرق جديدة في صياغة النحو وتدريسه.

أروى: تأثر علم النحو في بداية نشأته بعلم الفقه، وأخذ عنه السماع والقياس في استنباط قواعد النحو، كما أن هناك تأثيرا متبادلا بين علم الرياضيات وعلم العربية، فمن الملاحظ أن هناك تزامنا بين نظام تنقيط الحروف ووضع الصفر ضمن صفيفة الأرقام.

عزمي : لابد وأن يكون هنالك تأثيرات خارجية أيضا.

أروى: هـــناك من يقول أن العرب أخذوا عن الهنود في مجال الدراسات اللغوية، ويرجع أقدم ما وصل من كتاباتهم اللغوية الى القرن الخامس قبل الميلاد. فمثلا المتصلون بعلم اللغات يذكرون بأن اللغة السنسكريتية فيها المنحى الذي يرتب الحروف الأبجدية طبقا لنظرية الخليل بن أحمد الفراهيدي، وبذلك قد يكون أصل نظرية معجمه هندية. ولكن هنالك من يقول بأن الخلـــيل كان مهتما بعلم الأصوات، وحسبك أنه اكتشف علم العروض في الشعر، ولذلك نظرية معجم الفراهيدي من اجتهاده.

وأما المؤثرات اليونانية فقد جاءت متأخرة، أي بعد أن اكتمل النحو على يد سيبويه في أواخر القرن الهجري الثاني.

عزمي: ولكن الدكتور شوقي ضيف ينفي وجود أي مؤثر أجنبي على علم النحو، وهو يؤسس فكرته على نظرية العامل التي لا وجود لها في أي نحو أجنبي.

أروى: ربما يكون كذلك، ولكن من الملاحظ أن كتابات ابن جني يظهر فيها تأثره بعلم الفقه وعلم المنطق اليوناني.

عزمي: من المفيد أن يطلع الدارس على الكيفية التي تطور فيها النحو.

أروى: ومـــن المهـــم أن يدرس الإنسان المستجدات التي تمر بها الدراسات اللغوية الآن، ويستفيد منها في منهج بحثه لعله يحقق بعضا من الإنجازات في هذا المجال.

الفصل الخامس والعشرون:

نفيد

بالـــرغم مـــن موقف نفيد المتصلب لم يغب عن ذهن الجميع بأنه يريد مساعدة أولاده، ولكـــن بطريقة صعبة وأحيانا غير محتملة. وأكثر ما كان يخيف أولاده هي كلمة العقوق التي رماهم بها.

كـــان إعجاز الحق وأخته يتساءلان دوما: هل ما يفعلانه عيب أو حرام؟ هل هو عقوق يستحقان عليه معاملة الجفاء هذه أم لا؟

سأل إعجاز الحق محفوظ مرة هذا السؤال بعد أن أكد له بأنه وأخته يحبان والدهما كثيرا، ولا يفكران بعصيانه أو التخلي عنه أبدا، وأن همّهما الأكبر دائما برّه بالرغم مما يحدث الآن.

قال محفوظ: هل والدكما بحاجة إلى من يساعده في المطعم؟

أجـــاب إعجاز الحق: لديه بعض العمال، ولكنه يخبرنا دائما بأنه قد مهد لنا طريقا أضناه كثيرا، ويظن بذلك أنه أسدى لنا خدمة عظيمة، وما علينا سوى السير في ركبه ليوصلنا إلى وضع أفضل.

محفوظ: فهمت ما تقولانه. ولكن عليكما أن تساعداه حين يطلب منكما ذلك.

قال إعجاز الحق: لم نتقاعس قط عن مساعدته، ولكنه يريد منا أن نصبح أصحاب العمل الحقيقيين، وهذا لا يتفق مع ميولنا.

محفوظ: إن تصرف والدكما عبارة عن عادات وتقاليد.

إعجاز الحق: أرجو أن توضح لي أكثر.

محفوظ: العادات والتقاليد هي عبارة عن قوانين غير مكتوبة، ولكن تعارف عليها مجتمع مـــا في بلد ما. وعادة يتوارث هذه العادات الأبناء عن الآباء والأجداد. بعض هذه العادات مفـــيد، وبعضها مضى عهده. بعضها خالد، وبعضها بائد. ويمكن للعادات أن تتداخل مع الدين، ومع الزمن تبدو وكأنها جزء منه، ولكن إذا بحث الإنسان عن أصل هذه العادات فقد يستطيع أن يكتشف أنه لا علاقة لها بالدين.

وتعدّ العادات والتقاليد واحدة من عوامل نشوء الأفكار النمطية، والتي ربما تشكل حاجزا ذهنيا يمنع الإنسان من رؤية الحقائق كما هي عليه.

بعـــض العادات والتقاليد تلعب دورا هاما في الحضارة، إما أن تدفعها إلى الأمام لتزدهر، وإما أن تشدها إلى الوراء وتجمدها و تمنعها من النمو.

إعجاز الحق: كيف نعرف العادات الصالحة من غير الصالحة؟

محفوظ: العادات الصالحة هي التي تبث روح الخير والفضيلة بين الناس، وتقود المجتمع نحو الأفضل، والعكس صحيح.

ومنذ ذلك اليوم هدأت الهواجس التي كانت تنتاب مجيدة وإعجاز الحق، واطمأن كلاهما إلى أن ما يقومان به من دراسة وجدّ فيه الخير لهما وللأسرة أيضا.

الفصل السادس والعشرون:

الخبر السار

تـــناهى إلى سمع نفيد خبر أفرحه، مفاده أن ابن أخته جلال قد عدل عن فكرة العمل في الهـــند، وقـــد حصل على عمل في مكتب شركة نقل مقرها في لندن. التي سيقيم فيها كمسؤول عن مكتب الشركة. وهو الآن على وشك القدوم إلى بريطانيا.

كان سرور نفيد عظيما، لذلك تراجع عن قسمه، وطلب من زوجته استدعاء مجيدة فورا إلى المترل. قالت نوزت: وماذا عن إعجاز الحق؟

أجاب نفيد: لاليس الآن.

داخـــل نوزت الفرح للتغيير الذي طرأ على نفيد فجأة، فأسرعت إلى الهاتف واتصلت بمجـــيدة، وطلبت منها وهي مبتهجة القدوم إلى المترل لأن والدها يريدها أن تعود إلى البيت. فرحت مجيدة كثيرا، وفرحت معها صديقاتها أيضا. رتبت مجيدة ملابسها وتوجهت إلى المترل تصـــحبها الآمال الكثيرة، و لم تكن في شك بأن نصائح محفوظ لوالدها قد أتت أكلها الآن، وأن خبر نجاحها وعملها قد غير بعض المفاهيم عنده .

وعلى كل حال، هذا اليوم هو يوم جديد وهي قد صارت إنسانة متخرجة ذات مركز في المجتمع، لذلك انطلقت بشوق وحماس إلى بيت أسرتها. وما أن قرعت الجرس حتى فتحت أمها الباب، واستقبلتها بحفاوة كبيرة، وعانقتها وهنأتها بالتخرج. هرع أخوها مجيب وأختها الصـــغيرة صـــالحة إليها وهما فرحان بعودتها كثيرا. وما أن دخلت غرفة الجلوس حتى رأت والدهـــا واقفـــا أمام كرسيه الهزاز. تقدمت منه قليلا فاستقبلها بهدوء وعلى وجهه ابتسامة عريضـــة. ثم أجلسها على كرسيه الهزاز، ولكنه لم يهنئها على نجاحها، بل سألها عن حالها وقـــدم لهـــا هدية ملفوفة بورقة ملونة وحولها شريط أصفر فاقع. شكرت مجيدة والدها على هديته ونظرت إليه تنتظر منه أن يسمعها عبارات التهاني ولكنه لم يفعل. سادت فترة صمت.

قال لها أبوها: لماذا تنظرين إليّ هكذا؟ هيا افتحي الهدية وانظري إلى ما أحضرته لك.

ظنـــت مجـــيدة أنه يؤجل عبارات التهاني إلى ما بعد فتح الهدية. لذلك حلّت الشريط

الأصـــفر، ثم فتحت الورقة الملونة بسرعة لا لأجل رؤية الهدية بل لرغبتها في سماع كلمات التهنئة من أبيها. ومع ذلك ما أن وقعت عيناها على محتوى الهدية حتى أصيبت بخيبة أمل. إنه ساري هندي جميل ذو رسوم نباتية دقيقة، وخيوط مذهبة لامعة.

كتمـــت مجيدة مشاعرها أمام أبويها واخوتها ، إنها لم تكن يوما من هواة ارتداء الساري، في رأيها الساري هو لباس مناسبات فقط. أحست مجيدة بأن هدية والدها تأمرها من حيث لا تدري بالعودة إلى ما يريده هو من نمط حياة، فداخلها شعور بالانقباض .

صمتت قليلاً. قالت لها أمها : ما بك ؟

نظرت مجيدة إلى أبيها نظرات عتاب.

قال لها أخوها مجيب: لقد افتقدت مساعدتك لي في دروسي.

وأما صالحة فقالت: أما أنا فقد افتقدت قصصك الجميلة التي كنت ترويها لنا كل يوم. وأما نفيد فلم يستطع الصبر طويلا على تأجيل ما لديه من أخبار حول موضوع خطبتها التي لم تتم بعـــد. فقال لها بهدوء: ليس لديك الآن عذر على رفض الزواج من جلال، لقد حصل على عمـــل في مكتب شركة نقل لها مقر في لندن، وسيأتي إلى بريطانيا خلال الأيام القليلة القادم كـــان كـــلام والدهـــا غير متوقع على الإطلاق، و لم تعرف بماذا تجيب، وبدت علامات الاستغراب الشديد على وجهها.

تداركـــت أمها الأمر وقالت لها: إننا نريد الخير لك يا مجيدة، ونريد لك الأفضل دائما.

قالت مجيدة: من قال أن جلال قد غير عمله؟

قال الأب: لقد اتصلت عمتك بي هاتفيا من الهند خصيصا وأخبرتني بذلك.

قالت نوزت: لن نرى أفضل منه، ولا أنسب منه لك.

تجنبت مجيدة أن تحول اللقاء الأول لأسرتها إلى جدال لا طائل فيه. وإن كانت لا تشبه أمها بالشـــكل ولا بالميول ولكنها أخذت عنها طبع الهدوء والروية وعدم الانفعال. لذلك تريثت و لم تجب على كلام والديها مباشرة، بل قالت لهما: أريد أن أفكر الآن. ولكن والدها أراد أن يسمع منها كلمة الموافقة على ما يريد بسرعة. ازدادت دهشة مجيدة و لم تستطع الكلام. لقد ظنت أن والدها استدعاها فرحا بتخرجها وندما على ما بدر منه، و لم يخطر على بالها أنه لا يزال متشبثا بآرائه، و لم تعرف أن الأيام لم تغيره ولا حتى ابتعادها وأخوها عن المنزل قد حرك

فـــيه عواطـــف الأبـــوة وجعلـــته يراجع نفسه، ويرضى لأولاده بالطريق الذي اختاروه أنفسهم.

اخترق برهة السكون مرة أخرى صوت نفيد يطالبها بالقبول بجلال.

لم تجـــب مجيدة، ولكن والدتها قالت لها مرة أخرى: إنه شاب طيب، ونحن نعرفه جيدا. وبما أنـــك أنهيت الجامعة والدراسة فمن المناسب جدا أن نعلن الخطوبة، ونؤجل الزواج إلى أي وقت تريدينه. إن عمتك تنتظر الجواب منذ سنين .

لم تـــرد مجيدة طلبا لأمها أبدا لأنها كانت معها لطيفة دائما وتتفهمها، و لم تندم على الإصغاء لما تقوله لها، ولما تشير عليها به.

إن والدهـــا إنسان طيب ولكن عبء أعماله خارج المترل أوجدت مسافة غير مرئية بينه وبـــين أبنائه. إنه لم يتوان عن إعطائهم ما يريدونه من احتياجات مادية، ولكن تفكيره ولغته دائما كانت أقرب إلى لغة الأعمال والأشغال خارج المترل.

أخيرا قالت مجيدة لوالديها: حسنا، ولكن لي شرطا مهمّا.

فانفرجت أسارير نفيد وقال: هيا قولي ما هو؟

قالت مجيدة: لن أتوقف عن العمل، وسيكون هذا من ضمن شروط زواجي الهامة.

قالت نوزت: لا بأس سنخبر عمتك وجلال بذلك، وأظن أنهما لن يرفضان لك طلباً.

أحس نفيد بالارتياح، ومضى إلى غرفة نومه وهو يتسم.

حين تبعته نوزت قالت له: لماذا لم تهنئها بتخرجها من الجامعة؟

فعبس نفيد وجهه وقال: ماذا تقولين يا نوزت؟ لقد ظننتك قادرة على تفهم موقفي، هل تـــريدين مني أن أبارك لها لجوءها إلى بيت أخيك، وبعد ذلك ذهابها إلى بيت صديقاتها الماليزيات في السكن الجامعي. هل تريدين مني أن أعترف لها بأن ما فعلته هو الصحيح، وما فعلتُه هو الخطأ؟ إن شهادتها لا تهمني، كل الذي يهمني أن تتزوج من جلال، و أن تعيش كما عشت أنت وأمك وأمي وجدتك وجدتي. نريدها أن تبقى معنا، ولا تخرج عن أعرافنا، عندها أشعر بأنها ابنتي حقيقة.

الفصل السابع والعشرون:

ما الذي يحصل؟

تـــزامن قـــدوم الولـــد الخامس مع مرض جد سامر، لذلك انشغلت الجدة وأبواه به، وانقطعـــت رسائل جده العزيز عنه مدة طويلة. وإلى جانب هذا كله لم تعد سناء قادرة على تدريـــس الأطفال المناهج المقررة لمستوياتهم بسبب عنايتها بالطفل الجديد، و لم يعد بإمكانه تدريسهم بنفسه، ولا تشجيع زوجته على ذلك فهي لا تملك حتى الوقت الكافي لأخذ قسط مـــن الراحة. وصار حين يعود إلى المترل كل مساء بعد العمل يمطره أولاده بوابل من الأسئلة حول أشياء كثيرة تقتضيها مرحلة نموهم وتفتحهم على العالم، أحيانا يجيبهم، وأحيانا يتشاغل عـــنهم نتـــيجة قلقـــه على جده، أو لقلة تمرّسه على عمل الأطفال، وأحيانا لأنه متعب. وحـــين يكـــثر ضـــجيجهم ولعـــبهم داخـــل المـــترل فإنه يحتر في كيفية التعامل معهم. لم يقـــدّر قبل اليوم مدى الجهد الذي يتطلبه العمل مع الأطفال، و لم يدرك مدى التأثير الذي خلفه جده بنفسه. لقد تربى سامر عند جديه نزولا عند رغبة والديه، فهما كبيران في السن، وبحاجـــة إلى أنـــيس. ولقد لقي سامر كل عطف ورعاية منهما إلى أن سافر لإتمام دراسته الجامعـــية. ومنذ ذلك الحين لم تنقطع الرسائل بينهما، والآن يشعر بأنه لا يستطيع المضي في هذه الظروف الجديدة دون توجيهاتهم المتواصلة.

بـــدأ القلق يساوره من حين لآخر. عليه أن يقف الآن كإنسان مسؤول وزوج ناضج لإنســـانة ســـاندته كثيرا، وكأب ناصح لأطفاله الخمسة أيضا. و لكن الأمر لم يكن بهذه السهولة بعد انقطاع رسائل جده.

بعـــد فـــترة صار سامر كثير التردد على نفيد، يستمع لأحاديثه الكثيرة، ويشرب عنده الشـــاي الكشميري المبهّر ليروح عن نفسه بالكلام مع صديقه الذي يملك معرفة كبيرة عن أشياء كثيرة في هذا العالم، حتى أنه تساءل كثيرا في نفسه: كيف يستطيع نفيد أن يجد الوقت الكافي للمطالعة والحصول على كل هذه المعلومات، والعمل يستغرق كل وقته ؟

و مع تكرار مجيء سامر إلى صديقه، بدأ نفيد يبوح له عن مدى تأثره بموقف أولاده من

العمل معه. وصار ينصح سامر بالانتباه إلى مثل هذا الغلط.

بـــدأ سامر يتأثر بكلام نفيد من حيث لا يدري، وبدأ يتفاعل مع توجيهاته إلى أن صار يـــتخوف من أن يمر بنفس مشكلة صديقه. لذلك بدأ يفكر بطريقة يحصن فيها أطفاله من العصيان، وبدأ يتبنى خطة للتعامل مع أولاده لكي يقوا تحت جناحه.

صـــار في المترل، وبدون أن ينتبه إلى نفسه، يتقمص شخصية نفيد بكلامه وحركاته، و بدأ يستمع إلى المذياع باستمرار، وبدأ يفكر بشراء كرسي هزاز مثل كرسي نفيد.

وبـــدأ يتبع أسلوبا متشددا في توجيه أطفاله، وصار يلقي على سناء دروسا وعبرا من قصص نفيد حتى لا تحذو حذو نوزت بالتساهل مع أطفالها.

لم تكـــن سناء بمعزل عما يجري في بيت نفيد، ولكنها لم تجعل قصة هذه الأسرة تؤثر على منحى حياتهم إلى حدّ تعكير الأجواء في المترل.

ولكونها مشغولة بالأطفال إلى حد كبير، لم تستطع معرفة أسباب تفاعل سامر مع قصة نفيد. حاولـــت أن تبين له مرارا أنه ليس من الضروري أن يحدث مع أولاده مثل ما حدث لنفيد. وعندما فاتحته بضرورة معاملة الأطفال بالحسنى وحسب سنهم الصغير، أجابها: كل ما أقوم به هو حماية لنا ولأطفالنا.

وعندما قالت له: إنك تسمع من نفيد كثيرا. أجابها: إن نفيد متقدم بالعمر و لديه خـــبرة كـــبيرة في هـــذه الحـــياة، أمـــا نحـــن فـــلا نزال في طور تربية أطفال صغار. واســـتمر ســـامر بالتعامل مع أولاده وكأنهم مراهقين أو شبابا يافعين عليهم أن يلتزموا بكل قوانينه التي لا تتناسب مع أعمارهم، و بكل كلمة يتلفظها.

فـــإن كان في البيت يطلب من ابنه الكبير أن يلاعب اخوته ببعض الألعاب التي فرضها علـــيهم. وإن كـــان الوقت مساءً أرسلهم إلى النوم في ساعة مبكرة، وإن استيقظوا قبل أن يصحو هو من فراشه طلب منهم التزام الهدوء، وعدم اللعب إلى أن ينهض من فراشه.

قالـــت له سناء مرة: ألا ترى أن نفيد يتقن الحديث عن أسرته ولا يتقن الحديث معها ؟ فأجابها: إنه إنسان مشغول جدا، وليس لديه الوقت الكافي ليتكلم معهم أكثر من ذلك.

الفصل الثامن والعشرون:

الرسالة

كـــان سامر جالسا مع نفيد يتحدثان كالعادة حين أتى أحد العاملين عنده، وسلم نفيد رسالة، وقال له إنها من صديقه محفوظ.

أمسك نفيد الرسالة، وفتح الظرف ونظر إلى البطاقة التي فيها، ثم أعادها إلى الظرف مرة أخـــرى دون أن ينبس بكلمة، ثم دسّ الرسالة في جيبه. وتابع نفيد حديثه دون أن يعلق على الرسالة، ودون أن يذكر لسامر أي شيء عنها. ومضت الأمسية ولكن ليست كالمعتاد لأن سامر كان يتوقع في كل لحظة أن يحدثه عن تلك الرسالة لأن محفوظ صديقه أيضا.

ولكـــن نفيد على غير عادته لم يتفوه و لا بكلمة واحدة عنها، وانتهت الأمسية، وعاد ســـامر إلى مترله وهو يقول في نفسه: إن نفيد منفتح ومنطلق في الكلام، وخاصة معي. وقد عودني أن يتحدث معي عن أشياء تخصني وأشياء لا تخصني، ومن الغريب جدا أن لا يذكر ولا كـــلمة واحـــدة عن رسالة محفوظ. فكر قليلا ثم قال في نفسه: لربما كان الأمر خاصا بينهما.

ومضت بضعة أيام وبقي سامر يفكر كيف تصرف نفيد برسالة محفوظ أمامه، وبقي هذا الأمر يثير استغرابه.

وبقي أياما شارد الذهن متضايقا لا يتكلم مع زوجته وأولاده إلا القليل، وترك الاستماع إلى المذيـــاع، وكان على وشك شراء كرسي هزاز كالذي يملكه نفيد لكنه عدل عن ذلك فجأة. ظنت سناء أنه حزين لانقطاع رسائل جده، و لم تعرف السبب الحقيقي وراء تصرفات سامر.

الفصل التاسع والعشرون:

في شوارع لندن

كـــان يمشـــي في شوارع لندن مع زوجته وأولاده بحثا عن منزل محفوظ. إن السير مع الأطفال يحتاج إلى مهارة وصبر.

كان سامر ينظر إلى العنوان الذي في يده، ويتفحص اللافتات التي كتب عليها أسماء الشوارع. وأمـــا سناء فكانت تجرّ عربة "زين" و"ملدة"، وتمسك يد نشأة باليد الأخرى، وعلى جانب العـــربة علقت كيس ألعاب للأطفال، أما الطفلان الكبيران، نهى وشكيب، فقد أمسك كل واحد منهما بيد الآخر وهما يسيران بتؤدة بجانب سامر.

نسي سامر خريطة شوارع لندن في سيارته التي تركها في موقف السيارات قرب محطة الأنفاق. واضطر إلى ركوب قطار الأنفاق لبعد مكان بيت محفوظ، ولسهولة التحرك بالقطار داخل المدينة. والذي أدى به إلى نسيان الخريطة على ما يبدو هو تعطش أولاده للمعرفة التي زرعـــتها أمهـــم في أذهانهم منذ نعومة أظفارهم، واحتياجهم لمن يفرغ لهم طاقة التفتح على العالم. تعذر الوصول إلى منزل محفوظ، ومع ذلك واصل الجميع المسير إلى أن تعب الأطفال.

مـــرّ الجميع بجانب هاتف عمومي فلمعت في ذهنه خاطرة، لماذا لا يتصل بصديقه هاتفيا ويطلب منه إرشاده إلى مكان المنزل؟

أخـــرج مفكرته الجلدية، وحاول البحث عن رقم هاتف محفوظ، إلا أنه لم يجده، فقال لسناء : ربما نسيت نقله إلى مفكرتي الجديدة. هيا لنعد إلى المنزل.

طلبت منه سناء المفكرة، ثم بحثت عن الرقم فوجدته مكتوبا على الغلاف.

تـــناول سامر المفكرة ثم دخل إلى الهاتف العمومي، ورفع السماعة واتصل بصديقه. ولكن الهـــاتف كان مشغولا. كرر الاتصال مرات عديدة، إلا أن الهاتف بقي مشغولا، وفي النهاية وبعد أن تصبب العرق من جبهته رنّ جرس الهاتف، فتنفس الصعداء وقال لسناء : الحمد لله لقد بدأ جرس الهاتف يرن. ولكن بعد لحظات تداعى إلى مسامعه صفير صوت آلة الفاكس. فاضطر إلى إعادة الاتصال مرارا دون جدوى، فخرج من مكان الهاتف، وقال لسناء: سأسأل

أحد المارة عن العنوان، ليس لنا إلا هذا الحل الآن.

ســـار الجمـــيع بضع خطوات بجانب بعض المتاجر، فرأى سامر رجلا وقورا يخرج من أحدها، لما رآه سامر ذكّره بجده كثيرا نظرا للشبه الكبير الموجود بينهما، تقدم سامر منه وسأله عـــن العـــنوان الذي في مفكرته. أمسك الرجل الوقور المفكرة، وقرأ العنوان بلهجة إنكليزية واضحة، ثم بدأ يشرح له كيفية الوصول إلى المكان. شكر سامر الرجل الوقور ثم هم بالمسير، إلا أن الرجل استوقفه وقال له: من أين أنت ؟

فأجاب سامر: أنا من لبنان، هذه زوجتي سناء، وهؤلاء أطفالي.

فرحب بهم جميعا، وقال: أنا اسمي "ريشارد".

سامر: تشرفنا بمعرفتك.

ريشارد: هل أنتم من أفريقيا ؟

سامر: لا من لبنان، ولبنان تقع في آسيا.

ريتشارد: أنت عربي؟

سامر: نعم.

ريتشارد: هل أنت سائح؟

ســـامر: لا، قدمـــت إلى لـــندن لإتمـــام دراســـتي، وأنـــا أعمـــل الآن منذ سنوات.

ريتشارد: الشرق الأوسط مليء بالآثار القديمة والمتنوعة، ولا يزال اكتشافها مستمر إلى الآن، وأخبار ذلك لا تزال تطالعنا في الصحف من حين لآخر.

سناء: هل زرت الشرق الأوسط؟

ريتشارد: نعم زرت مصر وتونس، وسررت بزيارتهما كثيرا، و عندما كنت في تونس التقيت بأحد التونسيين المتعمقين بدراسة الآثار فحدثني عن الآثار العربية، ولشد ما أدهشتني عراقتها وتعدد الحضارات التي قامت في تلك المنطقة.

سامر: شكرا على اهتمامك بتلك الأوابد الخالدة.

ريشارد: سعدت بالتعرف عليكم.

سامر وسناء: ونحن كذلك.

الرجل الوقور : إلى اللقاء.

سامر وسناء: إلى اللقاء.

توجهت الأسرة إلى بيت محفوظ. ولما وصلوا إلى المنزل دخلوا الحديقة الأمامية، وركض شكيب ونهى إلى الباب وقرعا الجرس.

فتح الباب محفوظ وزوجته معصومة ورحبوا بهم جميعا.

قالت معصومة: لقد تأخرتم كثيرا.

ســـامر: لم أكن أعرف أن المنزل بعيد كل هذا البعد. لقد حاولت الاتصال بكم مرارا على الهاتف لترشدونا على مكان المنزل، ولكن الهاتف كان مشغولا طوال الوقت.

محفوظ: كنت أحاول الاتصال بنفيد، ولكن لم أجده في المنزل ولا في مكان عمله.

سامر: لا بد وأنه يبحث عن مكان المنزل أيضا.

محفوظ: إنني مستغرب عدم رده على رسالة الدعوة التي و جهتها له منذ أسابيع.

سامر: لربما نسي لكثرة مشاغله.

محفوظ: الغائب عذره معه.

سناء: كيف حصلتم على بطاقات الدعوة التي أرسلتموها لنا؟

معصومة: لقد قمت بتصميمها و إعدادها بنفسي.

سناء: كل من رآها أعجب بها.

معصومة: شكرا للتشجيع.

دخـــل الجميع البهو الكبير الذي جلس فيه الضيوف، وبعد أن ألقوا السلام على الحاضرين، جلسوا في الأمكنة المخصصة لهم. كان الجميع يتحدثون عن مناسبة الدعوة.

قال سامر: هل حفظ ابنك القرآن كله غيبا ؟

محفوظ: كما تعلم أن الأسر الباكستانية حريصة على أن يكون واحد من أفراد أسرتها حافظا للقرآن، ولكن ابني ليس له ميل إلى الحفظ، لقد قرأ القرآن كله حضورا، ومن عادتنا أن نحتفل بالأطفال حين ينهون قراءة القرآن كله.

في هذه الأثناء تحلق المدعوون حول المائدة طعام العشاء. جلس شافع بجانب عزمي.

قال عزمي لشافع: هل أكلت طعاما حارا من قبل؟

شافع: لا، لم أتذوقه أبدا من قبل.هل تذوقته أنت؟

عزمي: نعم .

شافع: كيف وجدته؟

عزمي: طيب المذاق.

بدأ الجميع بتناول العشاء وهم يتجاذبون أطراف الحديث، أثناء ذلك لاحظ محفوظ أن شافع لا يمضغ الطعام بل يلعه بلعا، وعيناه تدوران في أرجاء المائدة وكأنه يبحث عن شيء. فسأله محفوظ: هل تريد شيئا يا شافع؟

أجاب شافع: من فضلك أعطني وعاء اللبن الرائب الذي بقربك.

فقدم له محفوظ ما أراد، ولكن ما أن أكل شافع اللبن حتى كاد يغص، وصار يسعل واحمرت عيناه، ولما هدأ السعال قال باستغراب: حتى اللبن فيه بهارات!! من فضلك يا محفوظ أعطني كأسا من الماء.

محفوظ: هل تشرب عصيرًا ؟

شافع وهو يسعل: لا، ماء من فضلك.

ومـــا أن أحضر محفوظ الماء حتى أمسك شافع الكأس بلهفة، ولكن قبل أن يشربها قال له: أرجو أن يكون الماء بلا بهارات حارة.

قال محفوظ: إننا لا نضع البهارات في الماء.

بعد أن شرب شافع الماء قال لمحفوظ: إنني غير معتاد على تناول الطعام الحار.

محفوظ: كيف تطيبون الطعام ؟

شافع: بالأعشاب الخضراء أو الجافة و الليمون وشيء من الفلفل الأسود.

أذكر أنني كنت مرة في أحد المقاهي الأثرية القديمة في دمشق أستمع إلى الحكواتي وهو يقصّ حكايـــا عن أيام زمان، وكيف كان الأطفال يذهبون إلى "الكتّاب"، وكيف كان الأستاذ يضـــع نثرة من الفلفل الحار في فم التلميذ الذي يتكلم ألفاظا نابية في الصف، وكانت تلك النثرة التي لا تذكر تجعل التلميذ يقفز في الهواء.

قال محفوظ: نحن نكرم الضيف بإضافة البهارات لتنكيه الطعام وتطيبه. فتبسم الجميع.

الفصل الثلاثون:

غير متوقع

حين كان سامر يذكر لنفيد الصعوبات التي تواجهه وزوجته في المترل مع الأطفال بسبب الظروف التي يمران بها، لم يكن يفكر نفيد بكلام صديقه كما يجب بسبب انشغاله المتواصل، وكان كعادته يطيّب خاطره، ولكن لم يكن ينصحه كما كان يفعل جده.

في إحـــدى المـــرات وفي يوم من أيام رمضان بعد أن شرح له عدم مقدرته على تحمل ضجيج الأطفال في المترل، وطلب منه النصح. في ذلك الوقت كان نفيد شارد الذهن، ودون أن يفكر قال له: ما يحدث معك اليوم هو قصص الغد.

بعـــد هذا الجواب المقتضب توقف سامر عن شرب الشاي، وحملق في نفيد مستغربا جوابه، وقـــال في نفسه: هل سأكون ضمن قصصه التي لا ينتهي من سردها على الزبائن؟ في هذه الأثناء رنت ساعة جده في جيبه، فغمره شعور لم يعتد عليه من قبل. أحس وكأن جده يخبره بأهمية وقته المهدور بلا حساب.

أخـــرج سامر ساعة جده من جيبه، ونظر إليها فوجد أن الوقت قد تأخر كثيرا، لذا عليه أن يعود إلى المترل.

صمت برهة ثم قال في نفسه: لن يكون نفيد مثل جده الذي افتقده كثيرا. ثم قام من على كرســـيه، وقبل أن يستأذن بالانصراف، جاء محفوظ وسلم عليهما، وسأل نفيد مباشرة عن سبب عدم حضوره الحفل الذي دعاه إليه.

أجاب نفيد: لم أتلق منك أي دعوة.

محفوظ: لقد تركت لك رسالة مع أحد العاملين عندك .

فكر نفيد قليلا ثم قال: آه لقد تذكرت، هذا صحيح، لقد وضعت الرسالة في جيبي ونسيتها فيه لكثرة أعمالي.

قال سامر: كنت جالسا معك حين تسلمتها وفتحتها.

فتجهم وجه نفيد وصمت قليلا. قال سامر: ما بك يا نفيد؟

نفـــيد: لقـــد كانت مناسبة طيبة، وأنا آسف لعدم الحضور، ولكن إذا أردت دعوتي ثانية يا محفوظ فلتكن دعوتك عبر الهاتف، إنني لا أنسى ما يدور من حديث أبدا. سامر: إنك معتاد على سماع المذياع دائما.

أطرق نفيد رأسه ثم قال بتلكؤ: لا، ولكن لأنني لا أعرف القراءة ولا الكتابة بالإنكليزية ولا حتى بلغتي الأم.

فوجـــئ سامر و محفوظ بمقولة نفيد، و لم يعرف كلاهما بماذا يجيبانه. بعد برهة اعتذر محفوظ لأنه لم يكن على علم بذلك، وقال له: لو كان يعرف هذا الأمر لما توانى عن توجيه الدعوة إلـــيه عـــبر الهاتف. في هذه الأثناء تقدم أحد الزبائن من نفيد، وطلب التحدث معه. فودّع الصـــديقان نفيد، وخرج كلاهما من المطعم. وفي الطريق قال سامر: أنا لا أصدق بأن نفيد أميّ، لقد أتحفني بمعلومات كثيرة بأحاديثه التي لا تنتهي. من أين له كل هذه المعرفة؟

قال محفوظ: أربعون عاما في بريطانيا كفيلة بأن تكسبه معلومات جديدة ومتنوعة.قال سامر: كمـــا أن سماعـــه للمذياع بشكل دائم، ومتابعته لبرامج إعلامية متنوعة توصل إليه أحدث الأخبار والمعارف.

قال محفوظ: كلامك صحيح. ثم تودّع الصديقان، وذهب كل واحد منهما إلى منزله.

الفصل الواحد والثلاثون:

حتى مطلع الفجر

في كل يوم، وفي الهزيع الأخير من الليل يسير بين الأزقة، وهو يحمل طبلته الرنانة بيديه، ينقر عليها وهو يترنم بصوت جهوري بأناشيد جميلة ليساعد الناس على الاستيقاظ من النوم. في كثير من الأحيان يستيقظ الأطفال قبل مروره في حيهم، ويجلسون بقرب النوافذ لينظروا إليه، ويستمتعون بعزفه على طبلته المزخرفة، وبأناشيده ذات الكلمات السلسة، والمقفاة قبل السحور في كل ليلة من ليالي ذلك الشهر الفضيل.

إنه مسحّر رمضان الذي نسج حوله الأطفال الأقاصيص الكثيرة والمتنوعة، فهو المؤشر لبدايات وليال لها طابعها الخاص، والذي يبقى في مخيلتهم إلى بقية العام.

إن رمضان هو عنوان العيد وما يحمله من سعادة وفرح لكل الناس.

كان أطفال سناء غارقين في حديث أمهم وقصصها عن الأيام الرمضانية الشرقية، وكانت هي غارقة في النعاس.

سألها ابنها شكيب: صفي لنا كيف كان ينقر المسحّر على طبلته. في هذه الأثناء تداعى إلى آذان الجميع صوت نقر حفيف على باب المنزل.

قال شكيب وهو يفرك عينيه المثقلتين بالنعاس: لابد وأنه المسحّر الذي سمع قصتك يا أمي فأتى على الفور.

ابتسمت سناء وقالت: لقد نسيتم أن أباكم لم يأت بعد.

قالت نهى وهي تتثاءب: ولكن الوقت متأخر جدا.

قالت سناء: هيا إلى النوم، فاندسّ كل طفل في سريره، وشدّ الغطاء فوقه بإحكام، ثم أطفأت سناء النور، وأغلقت باب الغرفة.

فتح الأب الباب بالمفتاح ودخل المنزل، وبالرغم من أن سناء كانت تترنح من التعب إلا أنها لاحظت على وجهه علامات الدهشة و الاستغراب. أرادت أن تسأله عن سبب ذلك ولكن ما أن استلقت على السرير حتى استغرقت في نوم عميق. جلس سامر على كرسي في غرفة

الجلـــوس بجانب المذياع، ومدّ ذراعيه إلى الأمام، ثم كتـــّف بينهما وكأنه يحاول الإمساك بنفســـه حـــتى لا تنفلت منه، أو تضيع في زحمة الأفكار التي بدأت تتوارد إلى ذهنه تباعا. كيف أثرّ كلام نفيد في تفكيره؟ كيف أصغى إليه وانبهر بكلامه وهو رجل أمي؟ أليس من العجيـــب أن يملك إنسان أميّ كل هذه المعرفة، وكل هذه المقدرة على الحديث و الإقناع أيضا؟ فتح المذياع فتبادر إلى مسمعه صوت المذيع يعلن عن ثبوت رؤية هلال العيد. تنفس بعمق بعد أن أطفأ المذياع، ثم قام إلى أطفاله، وألقى نظرة على وجوههم البريئة، والتي يظهر شـــعاع المصـــباح الباهت بعض ملامحها فمسح على رؤوسهم. يحبهم وهم هادئون، ولا يستطيع تحمل بكاءهم ولا ضجيجهم ولا لعبهم. إنها مهمة سناء، إشباع كل احتياجاتهم من لعب وتنظيف وتوجيه وتدريس. أما هو فيحب أن يراهم سعداء ومؤدبون. لقد ورث هذه الطـــباع عن جده، وعززتها أقاصيص نفيد، وختمت على محتواها الظروف التي يمر بها حاليا فأصبحت تلازمه.

أحس في أعماقه بأنه أذنب بحقهم لأنه صار يعاملهم كأولاد بعمر أولاد نفيد، وصار يتساءل في نفســـه: لماذا يفرض على هؤلاء الأبرياء الصغار قوانينه المتعسفة؟ لماذا يتصرف معهم بهذه الطـــريقة؟ أحس بأن شيئا من نزق نفيد قد تسلل عبر تفكيره على جناح من أجنحة لقاءاته المـــتكررة، وبـــدأ يحثه لا إراديا على التصرف بمثل طريقته تجاه أولاده الذين لم يخرجوا إلى مدرسة بعد، ولا إلى مكان بلا أبويهما. إنهم لم يتمردوا عليه قط، و لم يطالبوه إلا بحق الطفولة المســـلوب. توجه بعدها إلى غرفة الجلوس، وصوت من الماضي ينبعث في أذنيه، وتداخل مع صوت جده الذي كان يردد ما يقوله المؤذن عادة عند كل صلاة.

أخـــرج الساعة التي أهداها له جده، وفتح غطاءها ليعرف الوقت، كانت الساعة تشير إلى الواحـــدة بعد منتصف الليل. تساءل كيف ترك زوجته وأولاده في المنزل بمفردهم إلى هذه الساعة المتأخرة وفي الوقت المهم ؟

لقد نام جميع من في البيت، أما ضميره فقد بدأ يصحو، وظل يفكر بما دار بينه وبين نفيد من أحاديث و لم ينم حتى مطلع الفجر.

الفصل الثاني والثلاثون:

العيد

سامر: في السنوات الأولى لسفر الإنسان إلى بلد جديد، ومكوثه في مكان بعيد عن أهله تصبح المناسبات العامة مناسبات ذات طابع شخصي، ما لم يبذل الإنسان جهدا لاستحضار تلك المشاعر التي كانت تغمره قبل التغرب.

عزمي وهو يحتسي فنجان "الكبوتشينو": لذلك أدينا صلاة العيد في هذا الصباح، ولذلك أتينا إلى مقهى الإنترنت اليوم.

سناء: لذلك التقينا بمعارفنا.

أروى: ولذلك صنعت حلوى العيد أيضا.

سناء: لم أستطع صنع حلوى العيد بسبب مشاغلي الكثيرة مع الأطفال، لقد اشتريت ما توفر منها في بعض المحلات التجارية.

سامر وهو يقلب صفحات الإنترنت: لم أدر أن الأطفال بحاجة إلى كل هذا العمل المتواصل.

عزمي و هو يضع كتاب الشعر الذي بيده على الطاولة التي أمامه: حاول أن تجد لهم المدرسة المناسبة وأرسلهم إليها.

ترك شكيب جهاز الكمبيوتر الذي يلعب به وقال: هل سمعت ما قاله العم عزمي؟ لماذا لا تريد إرسالنا إلى المدرسة يا أبي؟

فكر سامر هنيهة ثم قال: إنك لازلت صغيرا الآن، وفي الغد حين تكبر ستعرف لماذا لم أرسلكم إلى المدرسة.

قالت نهى: لقد كبر العم عزمي، وهو يريد معرفة السبب، هيا أخبره الآن .

فتبسم عزمي وقال: نعم، أريد أن أعرف السبب الآن.

فقال سامر: اليوم عيد ولا أريد أن أطرح هذا الأمر الآن.

عزمي: عليك أن تفكر بالأمر.

سامر: الكل ينصحني بذلك، لقد أصبحت أتحسس من سماع تلك النصائح المتكررة إلى

درجة أنها تشعرني بالحرج .

عزمي وهو يفتح كتاب الشعر: استمع إلى هذه القصيدة النثرية التي قرأتها البارحة.

سامر: ألا زلت تقرأ الشعر؟

عـــزمي: نعم، إنني حريص على تذوق الشعر منذ زمن طويل، لأن قراءة الشعر تهذب الذوق.

سامر: حسنا، اقرأ وأنا كلي آذان صاغية.

عزمي: اسم القصيدة النثرية "إلى أين تأخذك الكلمات؟"

إلى أين تأخذك الكلمات؟
إلى ما يزخر بالنُبْل؟
إلى ما اتضح من سُبُل؟
أم تُنْبِئُكَ بالعثرات؟
إلى أين تأخذك الكلمات؟
إلى مرج أخضر واسع؟
إلى قفرٍ أجردٍ شاسع؟
مُليءٍ وديانٌ ومرتفعات
إلى أين تأخذك الكلمات؟
إلى عالم يزخر بالأفكار؟
فيه الصفوة والأخيار
أم يُملي عليك كل مساء
غيوما تبدو مكتئبات؟
إلى أين تأخذك الكلمات؟
هل تفتح في يومك صفحات؟
فنرى آفاقا رحبات
للإنجاز متسعات
إلى أين تأخذك الكلمات؟

إن لم تلهمك كلماتي
قبسا من نور الخيرات
والجَدَ لغد أفضل آتي
فأعد ترتيلها وتفكر
لابد ليومك أن يُثمر
بطيب معان وصفات
و الصبح حينئذ يسفر
عما تعنيه كلماتي

ســـامر: القصيدة مفيدة جدا ، وطريقة قراءتك لها واضحة أيضا، ولكني أريد أن أتحدث عن العيد الآن.

عزمي: حسنا، أخبرني ماذا كنت تفعل أيام العيد؟

سامر: العيد مناسبة عائلية، لذلك كنا نحاول جلب جميع أسباب السرور إليها دائما.

سناء: ما أجمل أيام العيد ولياليه.

عزمي: إن شجر الصفصاف ينحني نحو جذوره ويقترب منها كلما كبر، والمغترب يحنّ إلى جذوره كلما جاءت ذكرى العيد.

واســـتمر الحديـــث حول العيد إلى أن حان موعد الذهاب لتناول وجبة غداء متأخر. كان الجمـــيع على وشك مغادرة المقهى حين دخل صديق عزمي وسلم على الجميع، و لما عرف أنـــه يوم العيد تمنى للجميع عيدا سعيدا. وما أن غادر الجميع المقهى حتى التقوا بإعجاز الحق ونور الآذان، فسلم الطرفان وتبادلا التهاني بالعيد، ومضى كل واحد منهما في سبيله.

الفصل الثالث والثلاثون:

التخرج

ترى هل ستتغير نظرة محفوظ وسامر إلي بعد أن علموا بأنني أميّ؟ سؤال تردد مرارا على لســـان نفيد وهو جالس على كرسيه الهزاز. هل سيبقون زبائني؟ وهل سيترددون عليّ كما كانوا يفعلون في السابق؟ هل سيأتي سامر لنتحادث سوية أم أنه لن يصغي لما أقوله بعد اليوم؟ في هذه الأثناء دخلت نوزت إلى الغرفة لتخبره بحلول موعد حفلة تخرج إعجاز الحق. رفض نفيد حضور حفلة تخرج إعجاز الحق كما رفض من قبل حضور حفلة ابنته مجيدة. ولما سألته نوزت عن سبب رفضه، أجاب: لأنني لا أريد، ولا تذهبي أنت أيضا، دعيه يذهب بمفرده. قالت نوزت: لا أدري ماذا أقول، ولكنها مناسبة مهمة. آباء كثيرون حضروا من بلاد بعيدة ليشـــاركوا أولادهم فرحة التخرج، وأنت القابع على بعد بضعة شوارع من مقر الاحتفال ترفض الذهاب لإسعاد ابنك !

نفيد: هل تعرفين لماذا ؟

نوزت: لماذا ؟

نفيد: لأنهم أرادوا لأولادهم هذا الطريق، و لم أكن أريده لأولادي.

اكتفت نوزت بالصمت، وقررت مصاحبة ابنها لتلك الحفلة.

ذهـــب إعجـــاز الحق إلى حفلة التخرج، وكانت تتملكه مشاعر الفرح لنجاحه، وفي نفس الوقـــت كانت تغمره أحاسيس الحزن بسبب رفض والده مرافقته إلى الحفل. بعد أن انتهى الحفل، عاد مع أمه إلى البيت سعيدا، وفي يده شهادة التخرج. كان نفيد جالسا على كرسيه الهـــزاز حين دخل إعجاز الحق الغرفة، وأخرج شهادته من الظرف الكبير، وقدمها إلى والده ليراهـــا، لكن نفيد رفض رؤيتها، وقال بشيء من الجفاء: اتركها على الطاولة ربما أراها بعد قليل. اقتربت نوزت من ابنها وقالت له: دعني أنظر إليها، ثم ربتت بيدها على كتفه، وهنأته وقالت له: إنك مجد حقا.

شـــكر إعجاز الحق أمه على ذهابها معه وعلى تهنئتها الصادقة. ثم استدار إلى أبيه، ونظر إلى

وجهه المتجهم، و لم يدر ماذا يقول له في بادئ الأمر. ولكن في تلك اللحظات تذكر نصيحة أمـــه "عليك أن تبرّ والدك، فهو وإن لم يرض عن دراستك لكنه يحبك و يريد لك الخير". لذلك حياه بلطف وشكره لأنه أتاح له فرصة العودة إلى المترل، ثم غادر غرفة الجلوس.

بالرغم من الضيق الذي انتاب نفيد إلا أنه تأثر بحسن تصرف ابنه. إنه لم يثر كعادته، فتساءل في نفسه: لماذا انقشعت تلك الغيوم المكفهرة، وتلك العواصف الصاخبة من سلوكه؟ بعد أن فكر لم يجد سوى جواب واحد ألا وهو، لقد أصبح ابنه رجلا ناضجا، و لم يعد ذلك المراهق الذي اعتاد أن يتمرد عليه في كل مرة يراه فيها.

وأما نوزت فإنها، ما إن انصرف إعجاز الحق إلى غرفته الخاصة حتى استدارت إلى نفيد تعاتبه عـــلى تصرفه البارد تجاه ابنه. فأجابها نفيد والدموع تنهمر من عينيه: الكل يعرف الآن أنني أميّ، أولادي وحتى أصدقائي المقربين إليّ.

لماذا تريدين مني أن أنظر إلى شهادة التخرج؟ ألا تعلمين أنني لا أعرف القراءة ولا الكتابة؟ هل تـــريدين مـــن أولادي أن يستهزئوا بي؟ لقد أصبحوا يفوقونني، كما أنني أشعر بالخجل من نفســـي لأنـــني مزّقت كتبهم ودفاترهم، ولأنني حاولت منعهم من متعة العلم. أشعر بأني أجحفـــت بحقهـــم، ولكن في الوقت نفسه أشعر بأنهم تركوني وخرجوا عن طاعتي. أخشى أن يتركوننا وأن يبتعدوا عنا في شيخوختنا. الآن أعمل لأجلهم جميعا، ولكن في الغد إلى من سيؤول أمر المطعم؟ ويا ترى هل سيستمعون للطاهي العجوز الذي لا يعرف كيف يمســـك بورقـــة مكتوبة بالوضع الصحيح؟ هل ستكون مكانتي في أنفسهم كمكانة والديّ اللذين أحبهما و أجلهما كثيرا ؟ هل سأصبح بعد كل هذا الكدّ والتعب لا أعني لهم سوى الجهل والتخلف؟ هدأت نوزت من روعه بعد أن باح لها بما يجول بخاطره، وقالت له وهي حزينة: نعم نحن أميّان ولا قواسم مشتركة تجمعنا بأولادنا في هذا المجال، ولكن الذي يجمعنا بهـــم إلى الأبد رابطة تفوق كل الروابط الموجودة في هذه الدنيا، إنها رابطة الأمومة والأبوة، رابطة الحب والعطف والرعاية، إنها رابطة متينة لا تنقطع وشائجها على مر الدهور. من قال يومـــا أن المتقدمين في العلم هم أكثر الناس عرضة للعقوق؟ ومن قال يوما أن وصول الأولاد إلى مراتب لم يصلها أبواهم ستكون يوما سببا في التمرد عليهما، وسببا في نكران جميلهما ؟

هـــدأ نفـــيد قليلا، ولأول مرة يدرك بأن الحياة كانت بالنسبة له عبارة عن نافذة، كلما

وقـــف أمامها يرى فيها أسرته وقصص الآخرين التي سمعها من معارفه على مدى السنوات العديدة، والتي كانت تقلقه دائما. ولكن في هذه الساعة فقط استحالت هذه النافذة إلى مرآة، ما أن وقف أمامها حتى رأى فيها نفسه وهواجسه.

لقد تخرج ولداه الكبيران، كما أن ولداه الصغيرين على وشك التخرج. لقد استطاعوا القيام بعمـــل لم يفكر به يوما، و لم يستطع نفسه اقتحامه أبدا. فالعلم بالنسبة له كان ذلك المجهول والصـــعب الـــذي يتجنـــبه دائما بسبب أميته. لقد آن الأوان لكي ينظر إلى أولاده بطريقة موضوعية وعادلة.

بعد فترة صمت قال لنوزت: أرجو أن يسامحونني لما سببته لهم من إزعاج.

قالت نوزت: سأشرح لهم كل شيء.

نفيد: لا تقولي لهم كل شيء ذكرته لك، ولكن لمحي لهم فقط وهم سيفهمون.

نوزت: اطمئن، إنهم أولاد طيبون ومتفهمون ويستحقون كل خير في هذه الحياة.

الفصل الرابع والثلاثون:

الوئام

مضى العام الأول من زواج مجيدة بلا منغصات. جلال يعمل بشركة نقل وزاكرة تعمل بمؤسسة حكومية .كلاهما راغب في عمله لولا رغبة نفيد التي لا تزال تراوده من حين لآخر في أن ينضـــم كلاهما إليه في العمل معه لينضووا تحت جناحه، رغم أنه عاهد نفسه مرارا نبذ مخاوفه القديمة، إلا أن حلمه في أن يعود إليه أولاده للعمل معه يوما ما ظل يصاحبه من وقت لآخر. لذلك بقي ينتظر فرصة قدوم أول طفل ليثني مجيدة عن عملها فتصبح أما وربة بيت، وعندها سيحاول تشجيعها على الانضمام إليه مع زوجها.

ولكن العام الأول مضى، ومن بعده العام الثاني و لم تحمل مجيدة.

لم تكـــترث مجـــيدة في بادئ الأمر، بل حاولت أن تجدّ في عملها قدر المستطاع لكي تحقق تقدمـــا، وقـــد استطاعت أن تترقى مرات عديدة نظرا لمثابرتها وجدها. وبعد مرور سنوات عديدة من الزواج بدأ القلق يساور والديها نتيجة عدم إنجابها الحفيد اللذان كانا يتطلعان إليه. وبدأ التوتر يسود جو الأسرة وخاصة لعدم وجود أسباب تمنع ذلك.

تحولت أيامها إلى أوقات عصبية، و لم تعرف ماذا تفعل، ولكن الترقيات التي حققتها في مجال العمل كانت تخفف عنها بعضا من الإحباط الذي بدأ يلازمها.

كادت قضية الأطفال تتحول من حالة قلق إلى حالة ضيق لولا ظهور بوادر الحمل على مجيدة فجأة، فأضاءت شموع السعادة في ربوع الأسرة مرة أخرى.

وبعد أن أنجبت طفلا، حاول الجميع وخاصة نفيد إقناعها بالاستقالة من عملها لرعاية ابنها. وبعـــد مناقشات عديدة، قررت بعد إنهاء إجازة الأمومة أن تخفف من ساعات عملها وأن تتساعد مع أمها في رعاية الطفل.

الفصل الخامس والثلاثون:

يوم جديد

تقدم السن بنفيد ومع ذلك بقي محبا لعمله مثابرا عليه، و لم يفكر بتركه يوما واحدا. لقد تخـــرج جمـــيع أولاده من الجامعة، وعملوا بمناصب تتناسب مع ما وصلوا إليه من درجات تعليمية عالية. وبالرغم من انشغالهم بأعمالهم الخاصة بقوا على صلة بوالديهم، و لم يتوقفوا عن السؤال عنهما أبدا .

وحـــين ألم الزكام بنفيد هرع إليه جميع أولاده، والتفوا حول أمهم وأبيهم، وطالبوهم بـــترك العمـــل بشـــكل نهائي، لكن نفيد أصرّ على العودة إلى العمل حالما يتلاشى الزكام. بعد أن تلاشى الزكام وتلاشت معه أفكار نفيد القديمة عن أولاده وعن الدراسة، أدرك أنهم حريصون عليه وعلى أمهم نوزت، وأنهم لن يفارقونهما أبدا. إنهم من جوهر أصيل ويعملون ما بوسعهم لاسعادهما. منذ ذلك الحين تغيرت كل أحاديثه مع زبائنه عن الدراسة. لقد أصبح إنسانا آخر عندما لمس ونوزت المعاملة النبيلة من أولادهما.

ومع بداية العام الدراسي الجديد كان يتجه ونوزت برفقة سناء وسامر إلى المدرسة.

أحس الجميع بأن الأبواب المغلقة بدأت تتفتح من جديد.

كـــان نفيد ونوزت يريدان تسجيل أسم حفيدهما في روضة الأطفال لضمان مكان له فيها حـــين يبلغ سن الذهاب إليها. في حين أن سناء وسامر يريدان تسجيل أولادهما في المرحلة الابتدائـــية. كـــان الأولاد يسيرون و يتهامسون عن ذلك المكان الذي سيصبح جزءا من أيامهما المقبلة كل صباح وإلى جانب كل منهما حقيبة مدرسية كبيرة.

في ذلك اليوم، كان الصباح ينبلج بتؤدة على الكون، وفي ذلك المكان كان يشرق صباح آخر، صباح مملوء بأمل مخضرم وجديد.